أضواء على الإصلاح الإنجيلي

صدر عن دار الثقافة المسيحية ص ٠ ب ١٣٠٤ ـ القاهرة

١٠/٤٠٩ ط ١ /٨٤ (أ) ٣٠٠٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٧٠٥٢

طبـع بمطبعة القاهرة الحديثة

أضواء على الاصلاح الانجيلى

دكتور

القس فايز فارس

دكتوراه فى الفلسفة واللاهوت

فهرس

الموضـــــوع	الصفحة
مقـــدمة الكتاب	٥
هل كان الاصلاح ضروريا	٧
مارتن لوثر وبدء الأصلاح الأنجيلى	٢٣
مبـــادىء المفكر الانجيلى	٤٣
الاصلاح الدينى ووحدة الكنيسة	٦٣
ملحق عن نشـــأة الكنيسة المصرية	٧٩
نشـــأة الكنيسة الانجيلية بمصر	٩٧

مقـدمة الكتاب

احتفل العالم البروتستانتى أو الانجيلى فى عام ١٩٨٣ بمرور خمسمائة عام على ميـلاد المصـلح الانجيلى الشهير مارتن لوثر ؛ واحتفـلت دولة المـانيا الديمقراطية (الشرقية) بنفس المناسـبة باعتبار أن مارتن لوثر زعيم فكرى ومصلح اجتماعى ظهر من ابنائها وعلى أرضها ٠ واحتفلت الكنيسة الانجيلية فى بلادنا المصرية بهذه المناسبة أيضا احتفالات كان لها مغزاها وصداها ٠

لذلك كان من المناسب أن نلقى ضوءا على الاصلاح الانجيلى الذى بدأ فى أوربا فى القرن السادس عشر ، وانتشر منها الى مختلف بلاد العالم ، ومنها بلادنا المصرية ٠ ان كثيرين من أبناء هذا الجيل لا يعرفون الكثير عن تراث الفكر الانجيلى ، وكيف نشأ ، ولـماذا هم انجيليون أو بروتستانت ؟ والمعنى الظاهر لكلمة «بروتستانت» هو « الاحتجاج » ، فعلام يحتج هؤلاء المحتجون ؟ وهل كانت هناك ضرورة للاصلاح الدينى الذى كان من نتيجتـه انقسام الكنيسة ، وضياع مظهرها الموحد باعتبارها « كنيسة واحدة جامعة رسولية »؟ وألم يكن ممكنا أن تحتـوى الكنيسة حركات الاصـلاح وتشـملها فى داخلها ؟ هذه وغيرها أسئلة تدور فى ذهن بعض الناس ، تحتاج الى اجابة وادراك ٠

لذلك اردت بمعونة الله ان أقـدم هذه الرسائل التـاريخية ، متوخيا قدر استطاعتى الأمانة العلمية ، وعدم المبالغة ، واحترام التـاريخ الكنسى ، باعتبـــار أن الكنيسة مهما ضعفت وشـابتها الشوائب فى بعض الظروف ، لكنها لم تزل كنيسة الله الحى ، التى تحمل رسالته الى العالم ، وتحفظ الايمان المسيحى ، وتسلمه الى الاجيال المتعاقبة ٠

وانى اذ أقـدم هذه الرسائل ، اقـدمها من منطلق الدعوة الى تجديد حياة الكنيسة ، وعودتها الى فكر فاديها الرب يسوع المسيح المخلص ، والى شريعته الصادقة الواردة فى كلمته المقدسة ، والى روحه المتجدد فى داخلها والذى يدعوها ان « تحفظ وحدانية الروح برباط السلام » ٠

الرسالة الأولى :

هل كان الاصلاح ضروريا ؟

لو تساءلنا : هل كان الاصلاح الانجيلى ضروريا للكنيسة ؟ فاننا نكون كمن يتساءل عن جدوى ازالة الغبار المتراكم على كنز ثمين نفيس ؛ أو عن ضرورة فتح النوافذ فى مكان ما ليدخل ضوء الشمس النقى ، والنسيم المنعش ، ليستطيع المقيمون فى ذلك المكان أن يتنفسوا هواء نقيا ، يجدد قواهم ، وينعش نفوسهم ٠

ان جذور الفكر الانجيلى موجودة فى الكنيسة منـــذ عصرها الاول ، ولم تفـارقها فى وقت من الأوقات ، لأن الكنيســة مؤسسة على الانجيــل ؛ لكن ظروفا متنوعة كانت تلقى ظلالا وغبـارا على نقـاوة الفكر الانجيلى فى الكنيسة بين حين وآخر ؛ وفى كل عصر من العصور نستطيع أن نجـد نفرا من رجال الله يسعون لاحيـاء الميراث النقى الذى تسلموه من المســيح رب الكنيسة ورسـله الأطهار ، ليحيوه من جـديد ، ويزيلوا ما تراكم عليـه من عادات وتقاليد وثنية على مر الأيام والسنين ٠ كان هؤلاء ينجحون تارة ، ولفترة من الزمن ؛ وتارة أخرى يفشلون أو يتعرضون للمقاومة من سلطات الكنيسة الرسمية التى كانت تسعى للحفاظ على مراكزها وسلطانها على الشعب ٠

من الواضح أن الرب يسوع المسـيح أثنـــاء تجسده على الأرض ، قصد أن يكون هناك تجمع لتلاميذه والمؤمنين به ، يكون هدفه تقديم الانجيل للعالم ، وخدمة النفوس المحتـاجة ، وبنيان المؤمنين فى شركة المحبة والخدمة ٠ أراد يسوع أن تكون كنيسته نورا للعالم وملحا للأرض ، وأداة لنشر فضائله التى هى ثمر عمل روحه فى حياة الناس ؛ وعمودا للحق وقاعدة له فى العالم ٠ لم يضع الرب يسوع نظاما محـــددا لادارة الكنيسة ، ولا أسلوبا معينـا للعبادة ٠٠٠ كل ما أمر به هو عبادة الله بالروح والحق ، والصلاة له بالايمان ، والكرازة بالانجيل للخليقة كلها ، وممارسة فريضتى

المعمودية والعشاء الربانى ، رمزا لغفران الخطايا وعمل روحه القدوس ؛ وتذكارا لموته الكفارى من أجل البشر ...

وبعد صعوده كان الرسل يواجهون حاجات الكنيسة كما يشعرون بها ، فوضعوا نظام الشمامسة لخدمة المحتاجين ، ونظام الشيوخ المعلمين أو القسوس والاساقفة نظار الرعية ، والشيوخ المدبرين ليعتنوا بالشعب ؛ وعندما كانت تظهر مسائل يختلف فيها الرأى ، كان الرسل والمشايخ يجتمعون معا ليناقشوا الأمور ويصلوا الى رأى فيها ، كما نرى فى سفر أعمال الرسل .

لكن الكنيسة كأى كيان موجود فى عالم الضعف والقصور الذى نحيا فيه ، تعرضت أحيانا كثيرة لعوامل الضعف الانسانى ، بسبب الأطماع البشرية فى قياداتها ، والابتعاد عن كلمة الله غذائها الحقيقى ، والانسياق وراء الدنيويات والأهواء من جانب رجال الدين وعامة الشعب على السواء .

فما أن جاءت العصور الوسطى حتى كانت الكنيسة شيئا يختلف تماما عما كانت عليه فى عصرها الأول حين كانت تتجلى فيها روحانية العبادة ، وحرارة المحبة ، وجمال الشركة ، وبساطة الايمان ، ونقاوة الحياة ... لقد تغيرت الكنيسة وتبدل حالها فى ظلمات القرون الوسطى وانشغلت بخلافات عقائدية شكلية ، واهتمامات مظهرية ابعدتها عن جوهر الحياة المسيحية النقية ، وسادتها طقوس وخرافات اصطنعها الكهنة والأساقفة ليسيطروا بها على عقول الشعب ؛ وساد الفساد بين رجال الدين وسرى منهم الى عامة الشعب ، فانحطت الأخلاق . ومن يقرأ تاريخ الكنيسة فى تلك العصور يقشعر بدنه وترتجف نفسه من هول ما يقرأ من شرور وموبقات كانت تحدث فى أعلى المستويات الكنسية .

ولكى ندرس الحقائق التاريخية دراسة موضوعية ، يلزمنا ان نجرى تقييما موجزا لكنيسة العصور الوسطى ، ما لها وما عليها؛ وان ندرس الظروف المتنوعة فى المجتمع التى استخدمتها العناية الالهية لتعد المناخ الملائم لحركة الاصلاح الانجيلى فى الكنيسة ، مستعرضين بعضا من طلائع الاصلاح الذين اجهضت سلطات الكنيسة حركاتهم الاصلاحية ، فكان جهادهم واستشهادهم دروسا استفاد منها زعيم الاصلاح الانجيلى مارتن لوثر ومن وقفوا بجانبه مؤيدين اياه ·

أولا : تقييم موجز للكنيسة فى العصور الوسطى :

ليس سهلا ايجاز حقبة طويلة فى تاريخ العالم والكنيسة فى سطور ، فليعذرنا دارسو التاريخ اذا لم نتوسع فى سرد الاحداث، مكتفين بالاشارة الى بعض النقاط الأساسية الضرورية لتسلسل الفكر دون الخوض فى التفاصيل ·

١ ــ كانت سلطة الكنيسة تزداد تدريجيا ، وكذا ثروتها وممتلكاتها ، فما ان جاء القرن الحادى عشر حتى كانت الكنيسة قد وصلت الى قمة السلطة الدينية والدنيوية · فقد كان الأساقفة أصحاب سلطة دينية ومدنية على المقاطعات والدوقيات التى تتبع لهم ، وبعد أن كان الملوك والأباطرة يعينون الأساقفة ، انتزع البابا هذا الحق من الملوك ، بل استطاع بابا روما أن يفرض سلطانه على الامبراطور نفسه·

ونذكر على سبيل المثال أنه عندما اعترض الامبراطور هنرى الرابع على رغبة البابا هيلدبراند Hilde brand فى تعيين الأساقفة ؛ هدد البابا الامبراطور ، ثم اصدر قرارا بحرمانه · وكان معنى قرار حرمان الامبراطور انه لا يمكن أن يحكم الامبراطورية

••• وتوسل الامبراطور الى البابا لكى يلغى قرار الحرمان ، لدرجة انه سافر فى الشتاء القـــارس هو والامبراطورة زوجتـــه وطفلهما الرضيع ، وعبر جبال الالب وسط الامطار والثلوج حتى وصل الى روما ، ووقف على باب القلعة التى كان البابا يسكنها ؛ وقف حافى القدمين ، لابسا ثيابا خشنة ، وهو يتـذلل حتى يسمح له البـابا بالمقابلة ؛ وظل واقفا مدة يومين طالبا الرحمة حتى سمح له البابا بمقـابلته ، ورفع عنه حكم الحرمان بشرط خضوعه التام لسلطة البـابا •

٢ ـ هذه السلطة الرهيبة لم تجعل الكنيسة قوية ، بل بالعكس اضعفتها ؛ فصار الناس يتنافسون للحصول على الوظائف الكهنوتية بمختلف درجاتها ، ويشترونها بالمال والرشوة دون ان تكون لهم أية رسالة روحية أو ميول دينية • وعاش رجال الدين حياة خليعة مستهترة انانية ، كل اهتمامهم محصور فى المحـافظة على سلطتهم وحقوقهم وامتيـازاتهم الاجتماعية والمادية ••• بل كان منهم من يسعى ليحتل اكثر من وظيفة لينال ايرادات أكبر ، ويعين اناسا أشرارا ليقوموا بعمله • وهكذا فسدت الأخلاق ، وعمت الرذيلة ، والسكر والعربدة • وابتدأ الناس يحتقرون الكهنة ويكرهونهم ، ومع ذلك كانوا يخافونهم لأنهم تحت سلطتهم • ومن يقـرأ الأدب المعاصر لتلك الحقبة من الزمن يشعر بالنقد اللاذع والهجوم الشديد على مخازى الكهنة والأساقفة والرهبان فى الأديرة •

٣ ـ كان طبيعيا والحالة هكذا ، ان تنحط الديانة وينعدم التعليم الدينى للشـعب ؛ فانحصرت الديانة فى الطقـوس التى كان يعزى اليها الخلاص بكيفية اشبه بالسـحر ؛ وفى الصلوات الى ارواح العذراء والقديسين بغية نوال بركاتهم ، والخوف

من لعنة الكهنة ، والأرواح الشريرة ؛ والاتكال على الأحجبة والتعاويذ وذخائر القديسين لتخليص النـاس من العذاب . وصار الشعب دون رعاية روحيـة ، وضعف اشراف الأساقفة على الكهنـة ، واكتفى الكهنة بقـراءة الطقوس والصـلوات باللغة اللاتينية التى لم يكن الشعب أو حتى بعض الكهنة يفهمونها ... ونادرا ما كان الكهنة يعظون الشعب ... هذا فى الوقت الذى نشأت فيـه فى أوربا مـدن جديدة ، وتزايد السكان ... لكن الرعاية والعناية الروحية بالناس قلت بل تكاد تكون انعدمت .

٤ ـ لكننا ونحن نشير اشارات عابرة الى هذه الحالة المخجلة ، لا ينبغى أن نغفـل الخدمة التى قامت بهـا كنيسة العصور الوسطى رغم ضعفها وفتـورها . ان الانجيليين مجربون أن يلتفتوا الى العيوب التى كانت فى كنيسة العصور الوسطى وينسـوا أن تلك الكنيسـة رغم أخطـائها هى التى حفظت الايمـان المسيحى عبر الأجيـال . ان الله لم يترك نفسه بلا شـاهد فى ذلك الزمان ؛ فقـد كان فى الكنيسة أتقيـاء وقديسون من المؤمنين المتعبـدين ، ومن النساك والرهبـان الزاهدين الذين سحرتهم كلمة الله وبشارة الانجيل فدرسوها وتذوقوها وكتبوا عنهـا . ومن أروع ما قيل فى هذا الصـدد ما كتبه كاتب انجيلى اذ قال :

« لا سبيل الى النكران أنه فى وسط ظلمة القرون الوسطى كان هذا النفر من رجال الله هم المحافظون على مشعل النور ، والقيمون على هذا الميراث المجيـد . وعلى مدار الزمان كنـا نرى بعض الناس تثيرهم رسائل بولس فتقفز قلوبهم وتهفو الى بشارة الانجيـل .... وهناك أيضـا جماعات متصوفة كانت تجد أشـياء عميقة فى انجيل يوحنـا ... وهناك دعاة الأخلاق وجدوا نقطة انطلاقهم فى العظة على الجبل .

حتى ضمن الأديرة فكثيرا ما كنا نرى الرهبان يتوقون الى حياة روحية عميقة ، وهناك دبجت براعتهم الكتب المهمة مثل كتاب الاقتداء بالمسيح لتوما الكمبيسى ، وغيره من الروائع ... »

٥ ـ ومن مآثر الكنيسة فى العصور الوسطى انها وحدت أوربا فترة من الزمن بعد ضعف وانهيار الدولة الرومانية التىكانت عامل الوحدة من قبل ؛ ولولاها لتفرقت أوربا الى جماعات بربرية غير متحضرة بسبب هجمات البرابرة ؛ لكن الكنيسة بسلطانها الشامل أخذت هؤلاء البرابرة وهذبتهم وبالرغم من الضعف الخلقى الذى ساد قياداتها ، لكنها غرست فى الناس من بذور الأخلاق ما أمكن أن يستمر فيهم . فبكل أخطائها التى أشرنا اليها استطاعت الكنيسة أن تقدم مبادىء الأخلاق ؛ فخففت ولطفت من القسوة فى معاملة العبيد ، ورفعت مقام المرأة ، ودافعت عن كيان الأسرة ، وقللت من احتمالات الحروب ؛ وبالمساعدات الخيرية للفقراء سدت احتياجات المحتاجينمقدمة بذلك صورة من الخدمة المسيحية ؛ ولعدة قرون فى أوربا كانت الكنيسة تكون هى المصدر الوحيد للتعليم ، فأغلب مفكرى العصور الوسطى كانوا من بين كهنتها ـ ان العناية الالهية جعلت الكنيسة ـ رغم كل اخطائها ـ عاملا فى حفظ المسيحية والحضارة ، الى أن أمسكت خيوط العناية بعوامل اخرى فى عصر النهضة الفكرية والعلمية ، لتكون ادوات أخرى لاستمرار الحضارة ، ودفع عجلة التقدم والفكر .

ثانيا : عصر النهضة كتمهيد للاصلاح الدينى :

نحن لا نستطيع أن نتكلم عن الاصلاح الانجيلى دون أن نشير الى العوامل الفكرية والقومية والسياسية التى ظهرت فى القرون السابقة للاصلاح والمصاحبة له ، فان كل هذه العوامل مجتمعة معا كانت أدوات فى يد الله ، سيد التاريخ ، استخدمها لتحقيق مقاصده العظيمة فى العالم وفى الكنيسة ، ليعد بها للاستنارة الروحية ليعيد الى الكنيسة وجهها المشرق ورسالتها الحية كنور للعالم وملح للأرض ٠

١ ـ ويطلق المؤرخون على القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر اسم « عصر النهضة » أو « عصر الاحياء » ، وبالانجليزية Renaissance ومعنى اللفظ الحرفى « الميلاد من جديد » ، ففى ذلك العصر استيقظت قوى الطبيعة الانسانية ، وغزا العقل البشرى مختلف الميادين ٠ وكانت أوربا هى منبع تلك الحركات لأنها كانت مركزا للحضارة فى ذلك الوقت ، وسرى تيار الفكر والاستنارة منها الى مختلف بلاد العالم ٠

ففى عام ١٤٩٢ اكتشف كولمبوس أمريكا ، وتوالت الاكتشافات الجغرافية شرقا وغربا ، وبذلك تحدد شكل الأرض وحجمها الحقيقى ـ وربما كان من أروع الاكتشافات ما أعلنه كوبرينكس عن النظام الشمسى وأن الأرض هى التى تدور حول الشمس ، ففتح بذلك مجالا خلاقا للفكر البشرى للنظر فى الكون الذى نحيا فى جزء منه ـ وقد ساعدت الاكتشافات الجغرافية على امتداد التجارة وفتح مجالات جديدة لتسويق البضائع والمنتجات ، الأمر الذى أثار فى دول أوربا المطامع الاستعمارية ـ وعندما اكتشف فاسكو دى جاما طريق رأس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقيا ، أصبح الوصول الى شرق أفريقيا وبلاد الشرق الأوسط ميسورا عن طريق البحر فزاد

نشاط التجارة الدولية وأثرى بسببها كثيرون ، بعد أن كان مصدر الثروة فى القرون الوسطى قاصرا على امتلاك الأرض ؛ وظهرت طبقات جديدة من التجار الأغنياء ٠

٢ ـ وقد صاحب هذه التغيرات الاجتماعية شعور بالقلق وعدم الرضى عند الفلاحين والأجراء ، خاصة فى المانيا ووسط اوربا ٠ وكانت مظاهر عدم الرضى تتجلى بين حين وآخر فى ثورات الفلاحين ضد أصحاب الاقطاعيات والشكوى المستمرة من الظلم والقهر ؛ وكان العمال فى المدن يؤيدون الفلاحين ، ويشعرون بأن القوانين الموجودة لا تحمى حقوقهم ٠ وكان العامل الدينى فعالا فى هذه الثورات اذ أن حقد الفلاحين أخذ يتزايد ضد الكهنة الذين كانوا يستغلونهم ويستفيدون منهم دون أن يعملوا شيئا للتخفيف عن الطبقات المظلومة ؛ وفى نفس الوقت كان بعض الثوار يطالبون بتطبيق المبادىء المسيحية الأصيلة فى العدالة الاجتماعية ٠

٣ ـ وفى ذلك العصر ، اذ ضعفت الامبراطورية الرومانية ، ظهرت الروح القومية فى بعض الشعوب التى كانت تحكمها تلك الامبراطورية ، وتحت قيادة بعض الملوك الأقوياء ، والأمراء الطموحين ، كانت بعض الشعوب تحتج على تدخل الأباطرة والكهنة الغرباء فشئونها وظهر هذا بنوع خاص فى انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ٠٠٠ وسوف نلاحظ ونحن ندرس حركة الاصلاح الدينى ، أن عاملا من العوامل التى ساعدت على نجاحها هذه الروح القومية التى سادت غرب اوربا ضد حكم وسلطان البابا والكنيسة الرومانية ٠

٤ ـ ومن الملامح البارزة لعصر النهضة انتعاش الفكر وانتشار العلم ٠ فعندما سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك عام ١٤٥٣

هرب كثير من العـلماء اليـونانيين الى المغرب ؛ وقد كانت اللغة اليونانية مهجورة فى أوربا الغربية ، فلما أعادها هؤلاء العلماء الى الحيـاة ، فتحت أمام النـاس نوافذ رائعة على العلم والفلسفة والآداب القـديمة . فنشـأت حركة فلسفية فكرية سميت بالحركة الانسانية Humanism تميـزت باحياء الآداب الكلاسيكية والروح الفردية والنقدية والتركيز على خـــدمة الانسان . وقـرأ بعض قادة الفكر فى الحـركة الانسانية اسفار العهد الجديد فى لغته اليونانية الأصلية ، واستطاعوا أن يقفـوا وجهـا لوجه أمام الصورة المثـــالية للكنيسة المسيحية وقارنوا بين تلك الصورة وواقع الكنيسة فى ذلك الوقت ، فصار بعضهم من الداعين لاصلاح الكنيسة ، ونذكر منهم جون كوليت John Colet من اكسفورد ؛ واراسموس Erasmus أستاذ العهد الجـديد الشهير . وقد ساعد اختراع آلة الطباعة عام ١٤٥٠ على سرعة انتشار المعرفة وتداول الأفكار بشكل لم يسبق له مثيـــل ــ وهكذا تهيأ الجو لحركة الاصلاح .

ثالثا : طلائع الاصلاح الانجيلى :

١ ــ ذكرنا من قبل ان جذور الفكر الانجيلى كانت فى الكنيسة منذ نشأتها ، ولم تفارقها لحظة ؛ وان كان نورها قد خفت قليلا أو صار باهتا ، لكنّه كان موجودا . ونستطيع أن نجد آثار هذا الفكر فى أقوال وكتابات بعض آباء الكنيسة وقادتها ، الذين درسوا الانجيل وتأثروا به ، وحاولوا اصلاح الكنيسة من الداخل . ونذكر منهم القديس برنارد (١٠٩٠ ــ ١١٥٣) الذى صار راهبا وهو فى الثانية والعشرين من عمره واشتهر بالزهد والتقشف فكان يتناول وجبة واحدة من الطعام يوميا ، ويصرف أغلب الليل فى الصلاة ، ومعظم النهار فى العمل الشاق

فى الحقول • وقد كان فى حديثه وديعا لكنه استطاع ان يوبخ البابوات والملوك لأجل امعالهم واجباتهم • ومن هؤلاء أيضا دومينيك الأسبانى (١١٧٠ ـ ١٢٢١) الذى اشتهر بالوعظ والكرازة للوثنيين • ومن الابطال الروحيين الذين اخرجتهم كنيسة العصور الوسطى ، القديس فرنسيس الأسيزى (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) الذى كان من أسرة غنية فى وسط ايطاليا ، واثناء شبابه المستهتر رجع بفكره الى الله فتحول تماما الى انسان متفان فى خدمة الله والناس ، ووزع كل أملاكه على الفقراء ، حتى اتهمه أبواه بالجنون ، وحرمه من الثروة ، فارتضى الفقر وتأثر بارسالية المسيح لتلاميذه فى الاصحاح العاشر من انجيل متى ، فخرج كارزا وخادما للجميع ، محبا للطبيعة والطيور والأزهار ، وتميزت خدمته هو وأتباعه بالبساطة والبهجة الصادقة والطاعة السعيدة للمسيح •••

٢ ـ على أنه ينبغى ان نذكر أن أمثال هؤلاء الأبطال كانوا قلة فى الكنيسة ، ولم تصل افكارهم ورسالتهم الى القاعدة العريضة لشعب الكنيسة • لقد كانت المسيحية فى نظر غالبية الشعب المسيحى فى العصور الوسطى هى ديانة الخوف ـ لقد اطبقت الكنيسة بقبضتها القوية على الناس باحياء شعورهم بالخوف من سلطة الكنيسة فى هذه الحياة والحياة الأخرى • ان الله الذى قدمته كنيسة العصور الوسطى للناس ، هو اله الديذونة الغاضب على شر الناس ، والذى ينبغى على الناس ليتقوا غضبه عليهم ان يطيعوا أوامر كنيسته التى أعطاها سلطانه على الأرض • أن الدافع الذى كان يدفع الناس أن يطيعوا تعاليم الدين ، لم يكن محبة الله ، ولا الثقة به ، ولكنه الرهبة من تصورهم نتائج العصيان ـ ولقد اشتملت الديانة على كثير من المعتقدات والممارسات الخرافية ، بل

ان جهل الناس قادهم الى مزج بعض التعاليم والمارسات الوثنية بالتعاليم المسيحية ٠

٣ ــ وعندما كان بعض المخلصين والمستنيرين فى الكنيسة يحاولون اصلاح الكنيسة ، كانوا يطالبون بعقد بعض المجامع الكنسية لبحث حالة الكنيسة ووضع خطة لاصلاحها ؛ لكن هذه المجامع الكنسية فشلت فى الاصلاح ، رغم انها كانت تضم زبدة قيادات الكنيسة ؛ ونذكر منها على سبيل المثال المجمع الذى عقد فى مدينة بيزا Pisa عام ١٤٠٩ ، لكنه فشل ؛ ومجمع كونستانس Constance الذى استمر ثلاث سنوات دون جدوى لعدم وجود الجدية والحزم عند من حضروه ؛ ومجمع بازل Basel الذى استمر منعقدا من عام ١٤٣١ ــ ١٤٤٩ دون جدوى ، حتى تبين لكثيرين انه لايمكن ان يحدث اصلاح من خلال النظام السائد فى الكنيسة فى ذلك الوقت ، وكان لابد من ثورة تكسر النظام القائم وتهزه ، حتى يمكن أن يتم الاصلاح ٠ وقد قام بهذه الثورة بعض الأفراد كل فى عصره وبلده ، لكن سلطان الكنيسة الرهيب كان يجهض حركاتهم الثورية ٠

٤ ــ ففى أواخر القرن الثانى عشر ظهرت حركة الفلدوسيين نسبة الى زعيمها بطرس فالدو Peter Waldo الذى كان تاجرا غنيا من مدينة ليون فى جنوب فرنسا ٠ كان هذا الرجل يتحدث مرة مع بعض أصدقائه فاذا بأحدهم يسقط ميتا عند قدميه ، فتأثر تأثرا بالغا ، واستفاق ليتجه نحو الروحيات ، وطلب من بعض رجال الدين أن يترجموا له بعض فصول الكتاب المقدس الى لغة الشعب ، وقرأ هذه الفصول بلهفة ، وتأثر بالأصحاح العاشر من انجيل متى الذى يروى ارسالية

الرب يسوع لتلاميذه ، فباع أملاكه وأعطى ثمنها للفقـراء ، وجال بين الناس يكرز بالانجيل ، منبرا على حق المسيحيين ان يقرأوا كلام الله باللغة التى يفهمونها ، ذلك لأنه قد راعه ان وجد كثيرين ممن يدعون انهم مسيحيون لايسيرون بموجب تعـاليم الكتاب المقدس • والعجيب أن السلطات الكنسية قاومته ، وحكمت عليه هو وأتباعه بالحرمان ؛ الا أنه ظـل مثابرا على رسالته بالرغم من ذلك ، حتى حكم عليه مجمع فيرونا عام ١١٨٤ بالموت باعتباره هرطوقيا مخالفا لنظـام الكنيسة •

٥ ـ وفى انجـلترا ظهـر فى القرن الرابع عشر مصـــلح عظيم هو جـــون ويكليف John Wycliffe الذى عـــرف بلقب «نجمة الصباح» ومؤسس حركة اللولاردز Lollards ، وهذا هو اللقب الذى أطلق فى المـانيا على أتباع ويكليف ، وربما اشتق هذا الاسم من الكلمة الألمانية Lallen ومعنـــاها الترنيم والتسبيح ، لأن هذه الجمـاعة كانت ترتب مرنمين يرتلون للمرضى وهم على أسرة مرضـــهم • كان ويكليف من علماء اللاهوت واستاذا فى جامعة اكسفورد ، كما كان كاهنا فى مدينة لتروورث Lutterworth وقد حاز شعبية كبيرة بين الفقـراء وعامة الشعب • واشـــتهر بالوعظ والترجمـة والتأليف ، وأرسـل مبشرين متجولين فى البلاد استقبلهم الناس بالترحاب ـ ولما رأى ويكليف فساد الكنيسة وحالة رجال الدين المنحطة ، لم يسـتطع أن يقف صامتا ، فشـن حملة ضد الفساد ، ودعا الكنيسة أن تعود الى رشدها لتحقيق أهدافها الأصيلة ، ثم وجه ضربة قاسية الى الكنيسة بانكاره حق البابا أن يأخذ جزية من انجلترا • وقد شجعته ظـروف

انقسام الكنيسة فى وقته ووجود بابا فى روما ، وبابا آخر فى افينيون بفرنسا ، فدعا الى رفض فكرة البابوية ، وأنكر الرتب الكهنوتية ، ومذهب الاستحالة لذلك حرمه البابا وادانته المجامع الكنسية ، وطردته جامعة أكسفورد · لكنه ظل باقى أيام حياته يترجم الكتاب المقدس الى اللغة الانجليزية التى يفهمها الشعب الانجليزى ، وظل يكتب ويعظ حتى مات عام ١٣٨٤ ·

٦ ـ وفى بوهيميا ، فى وسط أوربا ، ظهر جون هس John Hus فى أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ، وقد دخل جامعة براغ Prague بعد وفاة ويكليف بخمس سنوات ، وكانت كتب ويكليف قد انتشرت فى الجامعة ، فأكب على قراءتها وتأثر بمبادئها ـ وكانت الكنيسة قد أدانت ويكليف فكان طبيعيا أن يصطدم جون هس أيضا مع الكنيسة خاصة عندما ابتدأ يعظ بالانجيل ويندد بنوع الحياة المستبيحة التى كان الكهنة يعيشونها · وفى عام ١٤١٠ أمر رئيس أساقفة براغ باحراق كتبه ، فحرقت فى ساحة القصر ما يزيد على مئتى مخطوطة من كتابات ويكليف وهس · لكن الرجل ظل يكتب ويؤكد حقه فى الكرازة بحق المسيح كما يفهمه من الانجيل · ثم كتب كتابا مشهورا عنوانه «ناموس المسيح» ذكر فيه ان العهد الجديد كاف لارشاد الكنيسة ، وأن المسيحيين غير ملتزمين بطاعة البابا الا فى التعاليم التى تتفق مع ناموس المسيح ·

على أثر ذلك حوكم جون هس فى مجمع كونستانس عام ١٤١٤ (وهو المجمع الذى كان معقودا لاصلاح الكنيسة !) ، وكانت محاكمته مهزلة اذ أن الحكم كان مقررا بادانته قبل أن يستدعيه المجمع ··· وفى يوم عيد ميلاده الثانى والأربعين سيق جون هس

الى النار ، وربط الى عمود كبير فى جزيرة وسط النهر ، وأحرقت كتبه وملابسه على مشهد منه ، ثم اشعلت فيه النيران وهو يترنم ويشدو باسم المخلص يسوع المسيح .... وبعد حرقه نثر رماده فى مياه نهر الراين خشية أن يقدس أتباعه رفاته ... لكن أتباعه نهضوا على أثر استشهاده ، ثائرين على الأوضاع فى بلادهم ، مهاجمين رجال الكنيسة للأخذ بثأر زعيمهم ، وقد استطاعوا بكفاحهم أن يحصلوا على حريتهم الدينية وينشروا مبادىء مذهبهم فى معظم أرجاء بوهيميا .

٧ - وظهر قبل مارتن لوثر بقليل راهب ثائر فى مدينة فلورنسا بايطاليا اسمه سافونارولا Savonarola ، قام برسالة أخلاقية مصلحة ، وأراد أن يطهر مدنية فلورنسا ، وايطاليا والكنيسة كلها من الفساد ، وكان يواجه الحكام والعظماء بشجاعة قائلا « ان أردتم حكومة جيدة ، أطيعوا الله » ، وكان يرسل أتباعه حتى من الأولاد الصغار ليجمعوا له الكتب المخلة بالآداب والصور المثيرة للشهوات ويحرقها بالنار ، فى حين كان الأولاد يلتفون حوله بملابسهم البيضاء وهم ينشدون الأناشيد الدينية اظهارا لانتصار الفضيلة وقد واجه سافونارولا البابا الكسندر السادس الذى كان بشهادة جميع المؤرخين « حية رقطاء يستبيح بكل القوانين ، ويغرق نفسه فى الشهوات ، ممعنا فى القسوة لدرجة أنه لم يكن يتورع أن يدس السم لاتباعه » ... وأمر البابا باحراق سافونارولا هو واثنين من أتباعه ورفقائه الرهبان ... فاحرقوا وهم على ايمانهم بالمسيح والفضائل المسيحية عام ١٤٩٨ عندما كان عمر مارتن لوثر ١٥ سنة ...

هذا هو فجر الاصلاح الانجيلى ، ومما ذكرنا نستطيع أن نعرف باليقين : هل كان الاصلاح الانجيلى ضروريا للكنيسة ؟

الرسالة الثـانية :

مارتن لوثر
وبدء الاصلاح الإنجيلي

مارتن لوثر من الشخصيات التى ثار بشأنها جدل كثير خلال الخمسة القرون التى مضت على ميلاده ؛ فمن الناس من نعته بأسوأ الصفات ولقبه بأنه ابن للشيطان ، ومنهم من اعتبره أقرب الى الأنبياء الملهمين الذى أقامتهم العناية الالهية لخير الانسانية وخلاصها ... هناك من يتحمس ضده وهناك من يتحمس معه ؟ ومن يقف موقفا معتدلا بين هذين الموقفين يتعرض أحيانا لانتقاد الطرفين .

على انه من المؤكد ان مارتن لوثر ترك بصماته على الفكر والتاريخ والكنيسة بصورة لا تقبل الجدل ؛ والكتب التى تتحدث عنه خلال هذه الخمسة قرون لا يعادلها فى الكثرة الا ما كتب عن السيد المسيح وبولس الرسول ...

فمن هو مارتن لوثر ، وكيف صار زعيما لحركة الاصلاح الانجيلى ، ولماذا ثار على سلطات الكنيسة واصطدم معها ؟

عندما ندرس تاريخ حياة مارتن لوثر ، نرى أنه لم يكن بطبيعته ثائرا ، بل كان مفكرا ؛ ولم يقصد أبدا أن ينفصل عن الكنيسة ، لكنه كان مصرا على توجيه الكنيسة نحو رعاية الايمان فى نفوس الناس ، فاضطر اضطرارا أن يصطدم مع الرئاسات الكنسية التى كان يرى انها لا تقوم بواجباتها كما ينبغى .

كذلك لم يكن لوثر كاتبا وعالما يجلس فى برج عاجى مرتفع يضع النظريات ويكتب الكتب ، ويذيع دراساته فى العقيدة واللاهوت ؛ لكنه كان محاضرا يلتقى بالطلاب ويتجاوب معهم ، ويلقى عليهم دراساته ، ويتحسس أثر فكره فى الغير ؛ كما كان كاهنا يتجاوب مع الأحداث ، ويسترشد بكلمة الله فى اصدار

مكنونات فكره ، واتجاهات رأيه فيما يرى ويسمع من أحداث تجرى حوله ٠

ولد مارتن لوتر فى ١٠ نوفمبر عام ١٤٨٣ فى بلدة ايسليبين فى مقاطعة سكسونيا بألمانيا وهذه المقاطعة تقع حاليا فى المانيا الشرقية جنوب غرب مدينة برلين وقرب الحدود التشيكية ٠

كانت أمه مارجريت ليندمان من عائلة غنية ومثقفة ، وكان أبوه هانز لوثر من عمال المناجم الطموحين ، وكان يتمنى أن يكون ابنه محاميا لذلك حرص على تقديم أفضل أنواع التعليم لابنه مارتن ٠ وقد التحق لوثر بالمدارس التى علمته اللغة اللاتينية والخطابة والموسيقى وغير ذلك من العلوم السائدة فى عصره ، ونال درجة الماجستير فى الآداب فى عام ١٥٠٥ قبل أن يلتحق بدراسة القانون ٠

وفعلا بدأ دراسة القانون ، ولكنه فى ليلة من الليالى جمع أصدقائه الى حفلة فى منزله ، وفاجأ أصدقاءه أثناء الحفلة بانه دعاهم ليودعهم ، فقد قرر فجأة أن يدخل الدير ليصير راهبا ٠

وهكذا بدأت علاقة لوثر بالدين والكنيسة ٠ وانه لن العسير تلخيص مثل هذه الحياة النشطة العريضة فى وقت وجيز ، لكننى أرجو فى هذا المقام أن اقدم نذرا يسيرا من مواقفه وفكره مقسما حياته الى ثلاث مراحل :

١ ــ مرحلة الحيرة والتساؤل ٠

٢ ــ مرحلة التحدى والمواجهة ٠

٣ ــ مرحلة اليقين والمثابرة ٠

المرحلة الأولى : الحيرة والتساؤل :

كان مارتن لوثر بطبيعته مفكرا وفيلسوفا ، رقيق الاحساس، تأثر باختباراته العائلية ، والدراسية والاجتماعية ۰ والمدرسة التى تعلم فيها سنوات دراسته الأولى كانت تتصف بروح الزهد والتقشف والأمانة والاتضاع حسب فكر القديس فرنسيس الأسيزى ، وقد قيل انه من بين ما كانت تكلف المدرسة تلاميذها به أن يتجولوا يستجدون الناس تعبيرا عن التواضع وانكار الذات ۰

عندما مات صديق له بمرض خطير ، تأثر لوثر تأثرا بالغا ؛ كذلك عندما مرض هو أثناء شبابه ؛ وعندما اغتيل صديق له اسمه الكسيس فى ظروف غامضة سيطرت على مارتن لوثر فكرة الموت۰۰ كان يتساءل : ما هو مصيرى لو فارقت الحياة ۰ وفى عام ١٥٠٥ بينما كان يعبر احدى الغابات انقضت صاعقة على احدى الأشجار واسقطتها امامه ، فارتمى الى الأرض وهو يخشى الموت ، وصرخ مستنجدا بالقديسة حنة ، وهى القديسة التى كان يلجأ اليها بالاستغاثة عمال المناجم الذين كان أبوه واحدا منهم وقال :
- يا قديسة حنة ، اذا أنقذتينى من الموت ، فسأكون راهبا بقية أيام حياتى » ۰

وفعلا كان ذلك ، فقد التحق لوثر بدير للرهبنة الأوغسطينية التى كان معروفا عنها أنها من اكثر الرهبنات تدقيقا وتقشفا فى مدينة ارفرت ۰ ويرى أكثر الباحثين ان دخول لوثر الى الدير كان تعبيرا عن حيرته فى أمر خلاصه الأبدى ، وخوفه من الموت ، ورغبته فى ان يتأكد من نوال الخلاص ۰ وقد كان الناس يعتقدون ان افضل وسيلة لحياة التقوى ولنوال الخلاص هى الرهبنة ۰

ويبدو أن لوثر كان راهبا ممتازا فى اتمام كل الواجبات المطلوبة منه ، فلم تمض سنة واحدة على دخوله الدير حتى رسم كاهنا فى احدى الكاتدرائيات العظيمة فى ارفرت ؛ ثم أخذه رئيس الرهبنة الخاصة به وهو جون فون ستابيتز John Von Staupits

ليكون تحت رعايته واشرافه ليعده ليكون استاذا ، وفعلا تعين محاضرا فى الفلسفة الأخلاقية فى جامعة ارفرت ثم فى جامعة وتنبرج ، وفى نفس الوقت كان تابعا لرهبنته بل اختير معاونا لرئيس الرهبنة ·

وفى سنة ١٥١١ ذهب الى روما لمهمة تختص بالرهبنة التى كان تابعا لها ··· وكانت زيارة روما فى نظره ـ ونظر كل راهب وكاهن ـ هى أمل حياته وفرصة عمره ـ لقد كان يشتاق أن يرى المدينة التى لقبت بأنها « أورشليم المقدسة » حيث استشهد القديسون ، وناضل المسيحيون الأولون ··· المدنية التى كانت تمتلىء بالكنائس وحيث توجد ذخائر القديسين (بقايا من ملابسهم أو أجسادهم أو ممتلكاتهم) والتى كان يعتقد الناس حينذاك أن من يزور تلك الأماكن يمكنه أن ينال غفرانات كثيرة لخطاياه ···

وسار لوثر الى روما على قدميه ، زيادة فى التعبد والتذلل ، لكن يبدو أن روما خيبت آمال ذلك الراهب الشاب القادم اليها من بعيد ··· عندما وصل لوثر الى أبواب روما ركع على ركبتيه وهتف « انى أحييك يا روما يا مثلثة القداسة بدم الشهداء » ··· لكنه فوجىء بحياة الشر والفجور التى كانت تلوث روما ! ورأى الكهنة فى روما يعيشون حياة البذخ والترف والاسراف وهو الذى تربى على التقشف والصوم والصلوات ··· تركت كل هذه الأشياء آثارها فى نفسه الحائرة المتسائلة ·

وأمام كنيسة روما ، كان هنـاك السـلم المقدس المعروف « بسـلم بيلاطس » اذ يقـول التقليد أن درجاته نقلت من بيت بيلاطس البنطى · كان الناس يعتقدون أن من يصعد درجات هذا السلم الثمانية والعشرين راكعا على ركبتيه ، ويردد على كل درجة الصلاة الربانية ، ينال غفرانا كاملا لخطايا شخص يهمه ويخلص من المطهر ··· ولمـا كان أبواه لا يزالان على قيد الحيـاة ، لذلك قرر لوثر أن يصعد هذه السلالم لأجل انقـاذ جده من المطهر ··· وفعلا صعدها وقيل انه بعد أن انتهى من الصعود هتف وقال « هل انت سعيد الآن يا جدى بخروجك من المطهر ؟ » ولكن لوثر نفسه يروى هذه الواقعة فيما بعد بقوله :

« لقـد أردت وأنا فى روما أن أخلص جـدى من المطهر ، وصعدت سلم بيلاطس ، وكنت أتلو على كل درجة الصـلاة الربانية ، لكن عند وصولى الى النهاية تساءلت فى نفسى : ومن يعرف اذا كان هذا الأمر حقيقة أم لا ؟ »

هكذا كان لوثر ، دائم الحيرة والتساؤل ، حتى بعد أن نـال درجـة الدكتوراه فى اللاهوت عام ١٥١٢ وعين استاذا فى جامعة وتنبرج وكان يحاضر فى المزامير ورسائل العهد الجديد ، كان دائم التساؤل ·

ونقدم نموذجا واحدا من تساؤلاته ، التى هدته فيما بعد الى ادراك نور جديد من كلمات الكتاب المقدس ···

كانت تسـتوقفه دائمـا الآيات التى تتحـدث عن بر الله ، وما أكثرها فى سفر المزامير ، وفى باقى اسـفار الكتاب المقدس · كان يتساءل : اذا كان الله بارا (وكلمة بار معناها عادل) فكيف يمكن أن يكون رحيما مع الانسان الخاطىء ؟

ثم كان يتساءل : كيف يمكن للانسان الضعيف العاجز أن يرضى هذا الاله البار ؟

كان التعـليم السائد فى ذلك الوقت هو أن بر الله عطية من الله يعطيها لمن يتعـاونون مع النعمة ويعملون اعمـــالا صالحة ، ويتممون فرائض الكنيسة • وكان لوثر يشعر أن رغم كل الأعمال الصــالحة التى كان يعمـلها ، فان الله البـــار يطالبه ببر أعظم لا يستطيع هو أن يعمله ••• لم يكن هذا الاحساس وليد هبوط فى مستوى حيـــاته الخلقية ، فقد كان راهبا ممتـــازا موفيا كل الفروض ؛ ولكن ذلك الشعور كان نتيجة احساسه بعظمة قداسة الله التى لا يمكن أن تقبل النواقص •

يقول لوثر « لقد كرهت هذا التعبير (بر الله) لأنى فهمته بمعنى ان الله العــادل لابد يعاقب الخطاة • ولم أستطع ان أحب هذا الاله البار المنتقم » •

وأخيرا اكتشف لوثر الحل والنور فى النص الوارد فى رسالة رومية ١ : ١٦ ، ١٧ « لست أستحى بانجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن ••• لأن فيه معلن بر الله بايمان لايمان • كما هو مكتوب أما البار فبالايمان يحيا » ويقول لوثر : « أخيرا أشفق الله على وبدأت أفهم أن عبارة (بر الله) تعنى أن الانسان الذى يؤمن ـ بمجرد ايمانه فقط يحيا بالبر الذى يمنحه له الله ـ هذا البر هو رحمـة ونعمة من الله ننـالها بالايمان » ـ ثم يقول لوثر : « وحـالا شعرت بأننى أولد من جديد ، وأن ابواب السماء قد فتحت على مصراعيها أمامى ••• وبقدر ما كنت أكره عبـارة (بر الله) صرت أحبها ••• وهكذا أصبح هذا النص بالنسبة لى باب السماء » •

لم يكن هذا التعليم ـ التبرير بالايمان ـ من تأليف لوثر ، او حتى من اكتشافه هو ··· لكنه التعليم الكتابي الذى نادى به من قبل القديس أوغسطينوس ، ومن قبله بولس الرسول ، ومن قبله حبقوق النبى ـ وكانوا جميعا يعلنون حقيقة عمل الله العجيب المجانى ـ لكن لوثر أعاد اكتشافه ، بعد ان كان منسيا ··· مهملا ومتروكا وسط شكليات وطقوس الكنيسة فى ذلك الوقت ·

هذا الاكتشاف الرائع ، جعل لوثر ينظر الى الحياة بمنظار جديد ، وينظر الى الكنيسة وطقوسها وفرائضها نظرة جديدة ؛ وزاد من بحث لوثر فى آيات الكتاب المقدس ، ليجد فيه ما يروى ظمأ نفسه المتسائلة والمتعطشة الى المعرفة ·

المرحلة الثانية : التحدى والمواجهة :

ظل مارتن لوثر بعـــد اكتشافه الرائع لحقيقـــة التبـرير بالايمان ، ظل يحاضر فى الكتاب المقدس ، ويعظ بكلمة الله فكان دائما مجددا فى فكره ، مقنعــا فى منطقه ، واستأسرت كلمــة الله قلوب الناس ، فذاع صيته ، وأقبل الناس على عظاته ، وهــرع الطلاب الى محاضراته ؛ ولم يتعرض هو للكنيسة ونظامها ، الى أن تفجر الموقف ، ودخل الى مرحلة التحدى والمواجهة عندما جاء رجل اسمه يوحنا تتزيل Tetzel الى مكان قريب من وتنبرج ليبيع للناس صكوك الغفران ·

وقصة صكوك الغفران طويلة لا يتسع المقام لشرحها · وقد نشأت وليدة اعتقاد الكنيسة أن من حقها أن تفرض على الناس بعض العقوبات لأجل خطاياهم ، وكان الغرض من هــذه العقوبات أو التأديبات تعويد الناس على الطاعة والامتثال لأوامر الكنيسة · فكان على بعض الناس أن يقرأوا نصوصا معينة عدة مرات ، أو

يصوموا فترة محددة وغير ذلك من التأديبات ، لكى يرضوا مطاليب الكنيسة ، وينالوا غفرانها لخطاياهم .... لكن الحال تطور فأصبحت الكنيسة اذا احتاجت المال ، تصدر صكوكا تبيعها للناس ، لترفع عنهم العقوبات أو التأديبات الكنسية ... ثم ابتدأ الناس يتصورون أنهم بهذه الصكوك يستطيعون أن ينالوا غفران الله لخطاياهم ، وقد شجعتهم الرئاسات الكنسية فى هذا الاعتقاد ، لتزداد سلطتها على الناس ، ولتكون هذه الصكوك موردا للمال للكنيسة . وأصبح البابا يصدر صكوكا متنوعة الأشكال والمفعول لغفران أنواع ودرجات الخطايا المختلفة ؛ وكل نوع من الصكوك له ثمن يتناسب مع مقدار فظاعة الخطايا التى يغفرها للناس .

فى ذلك الوقت أراد البابا أن يعيد زخرفة كنيسة القديس بطرس فى روما ، فأصدر عددا من الصكوك أمضاها بنفسه ، وأرسلها الى رؤساء الأساقفة ليتولوا بيعها لحسابه ، بعد الحصول على عمولة لهم .

وقد كلف رئيس أساقفة مينز Mainz ـ وهى المنطقة المجاورة لوتنبرج ـ رجلا أو كردينالا اسمه جون تتزيل Tetzel ليبيع هذه الصكوك فى ابروشيته ... لم تكن تلك الابروشية هى التى يخدم فيها مارتن لوثر ، ولكن الناس عندما سمعوا بوجود فرصة لبيع غفرانات من البابا فى منطقة مجاورة ، كان بمكنهم أن يسافروا مسافة قصيرة الى المنطقة المجاورة ليشتروا الغفرانات ، ويعودوا مطمئنين الى أن كل خطاياهم قد غفرت ..

كان تتزيل هذا يسير فى الشوارع يعرض الصكوك للبيع ، يحوطه الكهنة والرهبان والراهبات ، تدق حوله الأجراس والنواقيس ، وهو يعلن للناس أن ينتهزوا الفرصة ليشتروا

غفرانات ... ويؤكد للناس أن هذه صكوك صحيحة ومضمونة ، تضمن لهم غفران الخطـايا الماضـية ، والخطايا التى ينوون أن يعملوها ، وتنقـــذ نفوس أقربائهم وذويهم من المطهر ... كان ينادى قائلا: « فى اللحظة التى ترن فيها نقودكم فى قاع الصندوق ، تنطلق النفس من المطهر وتطير حرة الى السماء » ...

ازعجت هذه الأمور لوثر ، كانت القضية التى يهتم بها هى قضية التوبة التى نادى بها المسيح ورسله ... التوبة والحزن على الخطايا التى صلبت المسيح وذاق من أجلها الألم ... لكن الكنسية ابتـدأت تبيـــع الغفران مقابل اسـعار كأى سلعة فى السوق .... كان ذلك خلاصا رخيصا يشترى بالدراهم ، وليس خلاصا ثمينا كلف المسيح حياته ولا يقدر أحد أن يدفع ثمنه سوى المسيح على الصليب ، يقدم مجانا بالتوبة الصادقة والايمان...

لذلك كتب لوثر ٩٥ قضية يهاجم بها بيع صكوك الغفران ، وعلقها على باب كنيسة وتنبرج فى يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧ ، وكان يوم جميع القديسين ، وهو يعلم أن الكنيسة فى ذلك اليوم سوف تمتلىء بالناس .

كان ذلك هو أسلوب الجامعة فى عرض القضايا الفـكرية الجديدة . وقد أعلن لوثر فى هذه القضايا عقيدته بشأن الغفران وهى أن كل مسيحى يتوب عن خطاياه توبة صادقة ينـــال غفرانا كاملا دون ما حاجة الى صكوك غفران . وان دعوة المسـيح لكل الناس هى أن يتوبوا توبة حقيقية ـ وأدان فى تلك القضايا طمع الكنيسة وتضليلها للنـاس ، وقال ان البـابا يحتاج الى صلاة الأيمان اكثر من حاجته الى المال ؛ وان كنز الكنيسة الحقيقى هو انجيل نعمة الله .

لم يكن لوثر يريد بذلك انقاص قدر البابا أو الأساقفة ، بل كان معتقد أن من يقومون بتلك الأعمال يسيئون الى البابا والأساقفة والكنيسة • وقد كتب لوثر هذه القضايا باللغة اللاتينية ، لكن الناس ترجموها الى اللغة الألمانية ، وطبعوها ونشروها ، فأثارت جدلا كبيرا فى أوساط الكنيسة ـ كما تطوع البعض فأرسلوا نسخا منها الى البابا ، وهكذا اشتد الجدل واحتدم النقاش وصار اسم لوثر خلال ثلاث سنين ونصف على كل لسان فى أوربا ـ سواء من أيدوه أو قاوموه •

لقد كان هدف لوثر مناقشة معنى التوبة ، ولكن المتمسكين بالشكليات والرسميات اعتبروه انه يتجاوز القنوات الشرعية فى اعلان افكاره ، واعتبروا أن لوثر بهذه القضايا يهاجم سلطة البابا وعصمته • كان لوثر فى ذلك الوقت يثق فى البابا كل الثقة ، فكتب له خطابا يشرح فيه موقفه ، ويوضح فيه الكيفية التى كانت تباع بها الصكوك وكيف أن ذلك الأمر يعتبر اهانة للمسيح وعارا للكنيسة • وختم لوثر رسالته بالقول :

« أيها الأب الأقدس انى القى بنفسى أمام قداستكم خاضعا بكل مالى وحالى • احيونى أو اقتلونى ••• انى أقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلما عاملا فيكم • فان كنت استحق الموت فلن أرفضه • لأن للرب الأرض وملأها • فليكن اسم الرب مباركا • وليحفظكم الله للأبد »•

لكن تلك الرسالة لم تجد لها صدى فى روما ، وقيل عن لوثر انه راهب مخمور مختل الفكر ؛ ثم دعاه البابا ليو العاشر الى روما ، ولكن منتخب سكسونيا أى أميرها وحاكمها المختار ، فردريك الحكيم ، عرف أن ذهاب لوثر الى روما معناه الموت ،

نطلب أن تنظر قضيته فى المانيا ٠٠ وجرت بعد ذلك مجادلات ومناقشات كثيرة بهذا الخصوص ، وارسل البابا مندوبين الى لوثر لمناقشته ، فلم يعدل عن رأيه أو يتزعزع عن موقفه ـ وفى احدى المناقشات قال لوثر انه بدراسته للكتاب المقدس اتضح له أنه ليست للبابا سلطة الهية على الكنيسة ، وأنه هو ومجامع الكنيسة ليسوا معصومين من الخطأ ٠

واثناء هذه الفترة التى دارت فيها المجادلات والمناقشات كتب لوثر نداءه المشهور الذى عنوانه : « الى نبلاء المسيحيين فى الأمة الألمانية » ، وكان هذا النداء دعوة للمقاطعات الالمانية أن تتحرر من سلطة روما ، كما تضمن انكارا لسلطات البابا والكهنة المتميزة ، معلنا بأن جميع المؤمنين هم كهنة ولهم حق الاقتراب الى الله مباشرة ، وانه من حق كل مسيحى أن يقرأ الكتاب المقدس ويفسره ، وأن هذا الحق ليس قاصرا على البابا وحده ٠ كما اشتمل هذا النداء على خطة لكنيسة ألمانية متحررة ومصلحة ٠

عندما فشلت المحاولات لاسكات لوثر ، سواء عن طريق الكرادلة واللاهوتيين وأشهرهم الكاردينال توماس كاجيتان Cajetan ، احد كبار الدبلوماسيين واللاهوتيين عند البابا ، وعندما عجزت الرهبنة الأوغسطينية التى يتبعها لوثر أن تسكته ، حاولت بعض السلطات الكنيسة أن تقدم ما يشبه الرشوة الى لوثر عن طريق أمير سكسونيا فريدريك الحكيم ، ولكن لوثر رفض هذه المحاولة ايضا وأخيرا اتخذ البابا ليو العاشر قرارا بانذار لوثر واتباعه بالحرمان اذا لم يرجعوا عن هذه الهرطقات فى خلال ستين يوما ، والا فانهم يعتبرون محرومين من السماء ، ويحق لأى حاكم أن يعتقلهم ويحكم عليهم بالموت ٠ كما دعا البابا جميع المخلصين

الكنيسة ان يحرقوا كل كتب لوثر · وكان الرد على ذلك متماثلا مع نفس الانذار ، اذ قام واحد من اصدقاء لوثر والمتحمسين لـــه هو فيليب ميلانكتون بجمع كل نشرات البابا وكتب الكنيسة ودعـــا الطلاب فى الجامعة ليشاهدوا حرقها ، وفعلا قام ميلانكتون بحرقها ومعها قرار البابا ضد لوثر ، وكان ذلك فى ١٠ ديسمبر سنة ١٥٢٠ ، وبذلك اتخذ التحدى شكلا علنيا جماهيريا عنيفا ·

أصدر البابا فى يناير سنة ١٥٢١ قرارا بحرمان مارتن لوثر ، وبأنه يستحق كل عقوبات الهراطقة ، وبقى ان تنفذ السلطة المدنية هذا القرار · وكان يمكن أن يحدث ذلك ويكون مصيره مثل مصير جون هس وغيره من طلائع الاصلاح ، لكن الذى انقذ لوثر هو عطف أمير سكسونيا فردريك الحكيم عليه ، خاصة وقد أصبح هنـــاك مؤيدين لمـارتن لوثر فى المـانيا ، لذلك رأى فريدريك انه لا يجـوز اعـــدام لوثر دون اعطائه فرصة لكى يوضـح اقواله ويدافع عن نفسه ·

وبضغط من البابا قرر الامبراطور شارل الخامس أن يعقـــد مجلسا امبراطوريا لمحاكمة لوثر فى مدينة ورمس Worms بالمـانيا فى عام ١٥٢١ ·· كانت قضية لوثر قد تحولت من مجـــرد جدل لاهوتى الى قضية تمس سلطة الكنيسة ومجامعها ، بل تحولت ايضا الى قضيـة سياسية وقومية ··

··

كان الامبراطور من عائلة نمساوية قوية ، وفى نفس الوقت كان ملكا لأسبانيا ، وكان يحلم بأن يبسط نفوذه على أوربا التى كانت مقسمة الى وحدات سياسية كثيرة ، وشعر أن انقســـام الكنيسة لن يساعده على تحقيق أحلامه ·· لذلك فمع انه كان يجب أن يسمع اقوال لوثر لكنه لم يكن متعاطفا معه ·

وحدد أحد ايام شهر ابريل سنة ١٥٢١ لبدء جلسات الاستماع الى لوثر ومحاكمته ..

وسافر لوثر من وتنبرج الى ورمس ، وهو يعلم انها رحلة الموت ، لكنه لم يكن خائفا . وذهل انه وهو في الطريق وجد كثيرين يرافقونه ، فظهر انه لم يكن وحيدا ، بل كان يكسب مؤيدين ومتعاطفين من كل الطبقات كلما سار مارا ببلدان ألمانيا .. وعندما وقف أمام المجلس الامبراطورى لم يكن ذلك الراهب الوحيد المعزول بل كان بطلا وزعيما لجماعة تقدمية تريد اصلاح الكنيسة واستقلالها .

وأمام المجلس الامبراطورى واجهوه بالكتب التى اصدرها ، وطلبوا منه ان ينفى ما جاء بها ، ويعدل عن أفكاره الواردة فيها . وطلب لوثر فرصة ليتكلم ، وكان البعض يريدون ان يمنعوه من الكلام والبعض يريدون ان يسمعوه ، واخيرا اعطوه فرصة الى اليوم التالى ليتكلم ..

وفى الغد كان عليه ان يقدم جوابه الفاصل فى مجلس مهيب .

كان أمامه الامبراطور شارل الخامس ، وشقيقه فرديناند دوق النمسا ، وبجانبهما حكام الولايات وأمراء البلاد فى الامبراطورية ، وزعماء الشعب من العلمانيين ورجال الدين وبينهم أربعة من الكرادلة ، ثم النبلاء والفرسان وممثلى المقاطعات .

وتكلم لوثر باسهاب عما وصل اليه من كتاب الله ، وحرك القلوب ، ولم يرض ان يتنازل عن موقفه قيد شعرة . وختم حديثه بقوله :

« انى لست الها بل انسـان انا ، وانى على استعداد ان اعترف بخطائى فى التعليم اذا كان هناك من يقنعنى بهذا الخطأ من واقع الكلمة الالهية • فلتنتصر الكلمة •• كلمة الأنبياء والانجيل »•

لـكن الامبراطور انتهره ، وسـأله عن طريق ضابط كبير ان يجيب اجابة مباشرة عما اذا كان يعـدل عن أقواله بعـدم عصمة البابا والمجامع المقدسة •• فكان جواب لوثر :

يا سيدى صاحب الجلالة الامبراطور ••

أيها السادة النبلاء •••

أنتم تطلبون منى جوابا واضحا صريحا عما اذا كنت مستعدا أن أعدل عن أقوالى بعدم عصمة البابا والمجامع المقدسة ، وها هو جوابى البسيط :

اننى لا أؤمن بهذه العصمة ، لأنه من الواضـح والمؤكد ان قراراتهم قد اخطأت مرارا ، فضلا عن أنها يناقض بعضها بعضا فى كثير من الأحيان • وما لم يقنعنى أحد بالاقناع العقلى والكتابى أن ما أقوله خطأ ، فلن استطيع ان أغير ما قلت ، ذلك لأنى مقيد بكلمات الكتاب المقدس ••• نعم ان كلمة الله قد استأسرت ضميرى ، لذلك لا استطيع ، ولا أريد ، أن أعدل عن شيء من أقوالى ، لأنه ليس من الصواب ولا من الأمان أن يسلك الانسان ضد ضميره • وها هنا أقف ، ولا أستطيع أن افعل غير ذلك ، والله معى » •

وهاج الحاضرون فى المجلس ، ونادى بعض الحاضرين من الاسبان وغيرهم هاتفين « الى النار » لكن بعض امراء المقاطعات الألمانية التفوا حول لوثر ، وأخذوه ليلا متجهين نحـو وتنبرج ،

والتقى بهم فى الطريق فرسان اختطفوه على صهوة جواد ، وحملوه الى قلعة فارتبورج ، وكان من أرسل هؤلاء الفرسان هو فردريك الحكيم أمير سكسونيا ، حرصا منه على حياة لوثر ٠

وقرر المجلس الامبراطورى ادانته وقتله ، لكن أحدا لم يجرؤ ان يمد اليه يدا ٠٠٠ وهكذا بدأ فصل جديد فى تاريخ الكنيسة وتاريخ حياة لوثر ٠

المرحلة الثالثة : اليقين والمثابرة :

أخذ لوثر الى قلعة فارتبورج ، وبعد أن كانت حياته شعلة من النشاط والحركة ، وجد نفسه محدودا فى حركاته ، وقد كان يشعر بالأسى وهو يرى الصيادين يطاردون الغزال على التلال ، أو الطيور فى الغابة ، وكان يرى نفسه فى نفس موقفها لأنه كان مطاردا من البابا ٠٠٠ ووسط شعوره بشىء من الاكتئاب والضيق ، وجه فكره نحو الله ، فرأى فيه الملجأ الأمين والحصن الحصين ٠٠٠ وتحول الى طاقة خلاقة فى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة الألمانية ، لغة الشعب ، فانجز ترجمة العهد الجديد فى وقت قياسى اذ اتم الترجمة فى سبتمبر ١٥٢٢ وعرفت بأنها « ترجمة سبتمبر » ٠ ولم يتوقف عند ذلك بل بدأ ترجمة العهد القديم ؛ وكان يقول دائما « اننى أريد أن اجعل الكتاب المقدس يتكلم كشخص المانى » ـ أى انه يريد الشعب الألمانى أن يفهم الكتاب فهما كاملا بلغته ؛ لذلك كان يذهب الى الحوانيت ومحلات البقالة والجزارة يسأل الناس هناك عن الأسماء الألمانية الصحيحة لأجزاء الحيوانات الواردة فى شريعة موسى ، وأسماء الأشياء المختلفة التى يستخدمها الناس فى حياتهم اليومية والواردة فى الكتاب المقدس ؛ كل ذلك لكى يكون الكتاب المقدس مألوفا وواضحا عندما يقرأه الناس ٠٠٠ كان لوثر يثق فى الله ، ويرى ان الله يريد تجديد حياة الكنيسة ، فكتب

شروحات للكتاب المقدس ، وكتبا عن حرية المسيحى ؛ وكان لوثر يحب الترنيم والموسيقى فكتب بعض ترانيمه المشهيرة ، ومنهـــا الترنيمة المبنية على مزمور ٤٦ والتى مطلعها :
Ein Feste Burg ist Unser Gott.

ومعناها « حصن منيع الهنا لنـــا » • لقد كان لوثر يحيـــا فى فارتبورج Wartburg ومعناها « قلعة الانتظار » ـ لأن كلمة Burg معناها « قلعة » أو « حصن » ـ لكنه كان يرى أن ملجأه الحقيقى هو الله •

وذاعت تعاليم لوثر الانجيلية ، وابتدأ مذهبه يكتسب انصارا فى المانيا وفى سويسرا ؛ واراد زعماء الكنيسة الكاثوليكية والحكام حينذاك أن يحاربوا هذا المذهب الجديد الذى ابتدأ ينتشر فى المانيا بزعامة لوثر ؛ وفى سويسرا وجنـــوب المـانيا بزعامة زوينجـلى Zwingli ، فاجتمـع مجلس فى مدينـــة شـــباير Speyer عام ١٥٢٩ ، وكان عدد الكاثوليك فيه أكثر من عـدد الانجيليين ، فوضعوا بعض القوانين التى تحد من حرية الانجيليين وتعوق تقدم أفكارهم • لكن زعماء ونبـلاء الانجيليين قالوا عبـارتهم المشهورة We Protest أى اننـــا نحتج على هـــذا الظلم والقوانين الجـائرة ••••

ويقول بعض العــــلماء أن العبـــارة التى نطق بها زعمـــاء الانجيليين هى باللاتينيـــة Pro Testari أى اننـــا فى صف الشهادة واعلان الحق ••• وسواء كان معنى العبارة الاحتجاج أو الوقوف فى صف الشـــهادة ، فانه من ذلك التـــاريخ ظهرت كلمة البروتستانتية ، التى ترمز الى الريادة فى المنـــاداة بحرية الفكر الدينى وحرية الاعتقاد ـ هذه الحرية التى فتحت أمام العالم باب الحضارة والتقدم فى مختلف المجالات ، والتى أصبحت حقا أساسيا

تكفله جميع دساتير العالم المتحضر ـ الحرية التى هى حق لكل انسان سواء كان ضمن الأغلبية أو الأقلية ٠

وهكذا نادى لوثر بحرية الانسان ، وفى نفس الوقت نادى بتواضع الانسان وحاجته الى نعمة الله ، وكتب فى كتابه « الحرية المسيحية » : « ان المسيحىهو أكثر الناس حرية وسيادة لا يستعبد لانسان ، وفى نفس الوقت هو خادم الكل ، وخاضع للجميع ، لأن المحبة بطبيعتها تخدم وتطيع من تحب » ٠

ومما هو جدير بالذكر ان ميشيل هارت مؤلف كتاب « الخالدون المائة الذين لهم أعظم التأثير فى التاريخ » ـ والذى يلخصه الأستاذ أنيس منصور فى الصحافة المصرية ، ذكر أن العدد الأكبر من هؤلاء الخـــالدين جاءوا من بلاد تدين بالبروتستانتية فى شـــمال أوربا وأمريكا ، وعــزا ذلك الى الاصلاح البروتستانتى كان لـــه أعظم الأثر فى نشر حرية التفكير الدينى ، وبذلك لم يعد هناك خوف من مراجعة كل الافكار والنظريات القديمة والانطلاق فى كل المجالات٠٠٠

بقى ان نذكر أن مارتن لوثر ، اتخذ خطوة جـريئة وهى انه تزوج من راهبة اعتنقت المذهب البروتستانتى ، وقد حاول البعض أن يشوه سمعته بسبب هذا الزواج ، ولكن لوثر قال ما معناه ان هذه العلاقة الشرعية المقدسة لا تشوبها شائبة وأفضل من الشبهات والمباذل التى يعيش فيها بعض الرهبان ـ ومن العبارات المشهورة عنه انه تزوج « ليجعل الملائكة تضحك والشياطين تبكى » ٠

وعاش لوثر سـنوات عمـره الأخيرة فى هدوء ، الى ان مات فى ١٨ فبراير عام ١٥٤٦ ، ومن آخر العبارات التى كتبها : « اننـــا جميعا شحاذون ٠٠٠ هذه هى الحقيقة ٠٠٠

هذا هو مارتن لوثر ، الذى أوجدته العنـــاية الالهية ليكون شرارة اصلاح فى الفكر والكنيسة والتاريخ ···

اننا لا نقدسه ، فلسنا ممن يؤلهون البشر ، وتمجيدنا كله يتجه الى الله وحده ···

ولا نعتبره ملكا لنــا نحن الانجيليين دون غيرنا ، فهو ملك للتاريخ والفكر وللكنيسة كلها ؛ والكنائس المسيحية كلها تدرس الآن افكاره وترى ان رسالته لتجـديد الكنيسة من خلال الانجيـل لها آثار لتتخطى الحواجز والفوارق بين الطوائف ··· ومن أروع ما قيل بمناسبة مرور خمسمائة عام على ميلاد لوثر . ما أشاد به البابا يوحنا بولس الثـــانى بابا روما الحالى من تقديره لحماس لوثر وغيرته على الانجيل ·

وما قاله الأب دانيـــال أوليفييه الكاثوليكى : « ليس لوثر وتعـــاليمه ملكا للكنيسة البروتستانتية وحــدها ، بل هما ملك للكنيسة الجامعة » ـ ثم ناشد العالم الكاثوليكى ان يدرس تعاليم لوثر وقال : « لو وجد لوثر فى عصر البابا يوحنا الثالث والعشرين وليس فى عصر البابا ليو العاشر لاصلحت المسيحية كلها » ·

كما أننـــا لا ينبغى علينا كانجيليين ان نعتبر لوثر سلاحا نحارب به الكنائس الأخرى كما فعلنا فى المـاضى ، لكننا نكتشف اليوم اننا جزء من مجتمع كبير نسعى لننمو معا اذ نكتشف اعماقا ابعد لحياتنا معا ···

ان لوثر كما قال عن نفسه ، انسان ، غير معصوم من الخطـأ ··· وهناك انتقادات مختلفة يمكن توجيهها اليه فقـــد انفعـل كانسان ، وتحمس كانسان ، وتطرف أيضا كانسان ··· وهناك ظروف ساعدته ، وظروف أخرى عاقته أو دفعته الى التطرف ·

ونحن أيضا اذا تأثرنا بافكاره ، فعلينا ان نحرص الا نقع في خطأ احساسنا بعصمتنا من الخطأ ، فنتجمد ومن ثم نتقهقر ونضعف ٠٠ ان الكنيسة المصلحة ينبغي ان تصلح نفسها دائما ، ولا تنغلق على نفسها ، بل تتفتح لتتقبل روائع نعمة الله في فكر خلاق دائم التجديد ٠٠٠

ان الهنا مبدع خلاق ، فلنكن أبناء أبينا الذي في السموات ، له المجد الى أبد الآبدين ـ آمين ٠

الرسالة الثالثة :

مبادئ الفكر الانجيلي

عندما تحدثنا في الرسالتين السابقتين عن طلائع الاصلاح الانجيلي ، وعن مارتن لوثر الزعيم الديني ارتبط الاصلاح الانجيلي أو البروتستانتي باسمه ، كنا نتحدث عن تاريخ ... لكن حديثنا عن هذا التاريخ لم يكن لمجرد رواية أحداثه ، وتحليل أسبابها ونتائجها ، انما قصدنا أن نوجه الانظار والأفكار الى الصراع الفكري ، أو صراع المبادىء الذي تولدت منه شرارة الاصلاح . فهذا ما يعنينا في واقع الأمر .

ليس هناك شك في أن عوامل سياسية وقومية واجتماعية وحضارية ساعدت على نجاح حركة الاصلاح الانجيلي وانتشارها في أوربا ، ومنها الى باقي بلاد العالم ، لكن هذه العوامل كلها مجتمعة معا ما كانت تستطيع أن تعمل شيئا ما لم يكن وراءها فكر ثوري متجدد خلاق ، استحوذ على العقول ، وأسر الألباب فدفعها الى التغيير . فما هي المبادىء الأساسية للفكر المصلح الانجيلي ؟

اننا اليوم نرى الكنائس الانجيلية كثيرة الفروع والشيع ، يختلف بعضها عن البعض في تفاصيل العقيدة ، وتتنوع أساليب عبادتها ، فمنها ما هو قريب من أسلوب العبادة التقليدية كالكنائس الاسقفية واللوثرية ، ومنها من قد تحرر تماما من شكليات العبادة كاجتماعات الأخوة ، ومنها من اتخذ طريقا وسطا بين هذه وتلك ، كالمشيخيين والميثودست والمعمدانيين . كذلك الحال في نظام ادارة الكنائس الانجيلية ، هناك كنائس تتخذ في نظامها أساقفة وقسوسا وشمامسة وترسمهم ؛ وكنائس أخرى ترسم شيوخا معلمين هم القسوس ، وشيوخا مدبرين للادارة وشمامسة لخدمة الحاجات ؛ واجتماعات أخرى لا تمارس أي نوع من الرسامة لخدامها ... هناك كنائس نظامها استقلالي فردي ، وكنائس أخرى تربطها بعضها ببعض مجامع أو محافل عامة ، اقليمية أو دولية ...

ان الانسان العادى قد يتيه فى وسط هذا الازدحام من الكنائس الانجيلية المتنوعة الأسماء والأشكال ، والبعض يعيبون على المذهب الانجيلى سماحه بكثرة الفرق ، وتعدد الشيع · على اننا نرى انه بالرغم من بعض الضرر الذى تعـانيه الانجيـلية من جـراء هذه الانقسامات المتعددة ، الا أن هناك جانبا مشرقا فى هذه الظاهرة اذا فكرنا فى البديل لهذه الحرية · وان نظرتنا الى الكنيسة القـديمة قبل عصر الاصلاح تكفى لتقديرنا لهذه الحرية ، اذ كانت الكنيسة فى القـديم تقف سدا فى وجه تفتـح القوى وانطلاقها فى الأفراد والجمـاعات ، وكان ذلك بسبب احتفاظها بحق تفسير الكتاب المقـدس للاكليروس فقط ، ووقـوع هؤلاء الاكليروس تحت رتب متدرجة ، ذات تسلسل هرمى يجلس البابا على قمته ، الأمر الذى حرم الكنيسة من حرية الفكر والانطلاق · فلما تحطم هذا الحاجز عند المصلحين الانجيليين ، تدفقت طاقات الفكر فى حرية ـ ربمـا تجاوزت الحدود أحيانا ـ لكن فى الاجمال اصبحت هذه الفرق بمثابة القنوات التى منها أخذت تجرى أنهار ماء حية منحدرة من ينبوع الحياة الرب يسوع المسيح ·

ومع أن هناك فرقا وشيعا كثيرة عند الانجيليين ، الا ان هناك اطارا واحدا من المبادىء الانجيلية يجمع هذه الشيع معا ، بالاضافة الى المبادىء التى تتحد فيها جميع الكنائس التى تتخذ من يسوع المسيح ربا ومخلصا وفاديا · وأرجو أن أقدم فكرة موجزة عن هذه المبادىء الانجيلية ، محاولا تضمينها فى أربعة مبادىء :

— ١ —

المبدأ الأول

سمو سلطان الكتاب المقدس
وحق كل مؤمن فى قراءته وتفسيره

كانت الكنيسة القديمة لا تسمح لغير الكهنة بقراءة الكتاب المقدس • وكان هؤلاء يقرأونه باللغة اللاتينية ، التى لم تكن لغة التخاطب بين الناس ، لذلك انعزل الكتاب المقدس عن حياة الناس ولم يكن كتابا حيا يخاطب البشر • كذلك حرمت الكنيسة الناس والكهنة من حق الاجتهاد فى تفسير الكتاب المقدس ، وأعطت هذا الحق للبابا والمجامع الكنسية وحدها ، واعتبرت قرارات البابا والمجامع الكنسية معصومة من الخطأ فى هذا التفسير •

كان هذا المبدأ هو نقطة الخلاف الأولى بين مارتن لوثر وبين رئاسات الكنيسة ؛ اذ أن لوثر تمسك بحق كل انسان فى قراءة الكتاب المقدس بلغته التى يفهمها • والاستنارة الروحية التى وجدها لوثر كانت من كلمات الكتاب المقدس • وفى دفاعه عن نفسه أمام المجلس الامبراطورى فى ورمس سنة ١٥٢١ أعلن انه مستعد أن يعترف بخطأه اذا أقنعه أحد بهذا الخطأ من كلمات الكتاب المقدس •

الا أن الكنيسة القديمة أصرت على فكرها ، وقد أصدر مجمع ترنت ، الذى انعقد بعد الاصلاح بقليل (١٥٤٥) قرارا يضع قيودا شديدة على قراءة الكتاب المقدس بلغة الشعب ، اذ جاء فيه :

« لما كان قد ظهر من الاختبار انه اذا سمح لكل انسان بدون تمييز قراءة الكتاب المقدس المترجم الى لغة الشعب ٠ فان تهور البشر الناجم عن قراءته يسبب شرا أكثر من الخير ؛ لذلك وجب الحصول على اذن خاص للسماح بقراءة الكتاب المقدس المترجم الى لغة الشعب » ٠

فضلا عن ذلك ، فان ذلك المجمع تمسك باضافة التقليد الكنسى كمرجع للدين المسيحى بقوله :

« ان المرجعين العظيمين لدى الدين المسيحى هما الكتاب المقدس والتقليد الكنسى » ٠

الا أن الانجيليين ، مع احترامهم لتاريخ الكنيسة والتقليد الكنسى كأقوال الآباء وممارساتهم ، لكنهم يصرون على رفض كل تقليد مهما قدم عهده ، أو كانت عظمة شخصية مبدعة ، الا اذا كان متناسقا مع كلام الله فى الكتاب ٠ ان مرجع الانجيليين الوحيد هو الكتاب المقدس ، باعتباره القانون الوحيد المعصوم للايمان والأعمال ٠ لا ينكر الانجيليون ان التقليد يلعب دورا هاما فى حياة الناس ، وجميع الأديان لديها مع الكتب المقدسة نوعا من التقاليد تفسر الوحى ؛ لكن الانجيليين يدرسون التقليد كنوع من التاريخ ، ويرون أن بعض التقاليد تفسر الوحى لكنها **لا تتممه** ٠٠ أى ان الكتاب المقدس كامل وهو وحده أساس العقيدة والسلوك ٠ صحيح ان مجامع الكنيسة هى التى أقرت قانونية الأسفار فى الكتاب المقدس ، وكان ذلك بناء على أدلة داخلية فى الأسفار نفسها ، أو فى أسفار نظيرها فى الكتاب أو أدلة وقرائن خارجية أخرى ٠ لكن الكتاب المقدس فى النهاية هو الذى يتكلم ويكمل بعضه بعضا ٠

لذلك جعل الاصلاح الانجيلى الكتاب المقدس وحده أساسا لكل العقيدة . انه يحتوى على المسيح الذى هو كلمة الله ـ الكلمة الكائن مع الآب منذ الأزل ، وقد تجسد بظهور السيد المسيح على الأرض هذا الكلمة المتجسد هو أساس الكنيسة وهو الذى يتكلم فى أسفار الكتاب المقدس ، وهو الذى يعطى الحياة والقوة للكنيسة على الدوام . فالكتاب المقدس له سلطانه الكامل ، ومركزيته فى الكنيسة باعتباره كلام الله ، أو المجال الذى يتكلم فيه المسيح للكنيسة .

وفى كتاب مارتن لوثر « الى نبلاء الأمة المسيحية الالمانية » ذكر عن بعض الحواجز أو الأسوار التى وضعتها الكنيسة لكى تحتفظ بسلطانها وسيادتها على الناس ؛ ومن هذه الحواجز « حق الاحتفاظ بتفسير الكتاب المقدس للاكليروس فقط » قال لوثر « ان تفسير الكتاب المقدس حق للجميع ، لأن روح الله هو الذى يعمل فى القارىء سواء كان كاهنا أو علمانيا ؛ عالما أم عاميا لكى يفهم المكتوب » .

ومن أقوال لوثر الشهيرة « ان الله الذى جعل حمارا يتكلم لكى يوبخ نبيا هو بلعام ... الا يمكنه أن يتكلم على فم انسان تقى لكى يوبخ البابا ؟ ! »

بقى أن نذكر أن هذا الحق ، وهذه الحرية فى تفسير الكتاب المقدس ، لا تنكر امتياز العلماء ، وأهمية الموضوعية فى التفكير عند دراسة كلمة الله ؛ وليس معناها ان يتسرع الانسان فى الوصول الى نتائج فى تفسيره للكتاب المقدس ويرفض بعناد المشورة العلمية ، والحكمة النابعة من الدراسة المستفيضة ، ويصر على

تفسير جاهل الكتاب ··· بل يعنى هـــذا الحق أن أى انســان يستطيع أن يقرأ الكتاب المقـــدس ، ويستعين بكافة الوسائل على فهمه ، وفى نفس الوقت يكون مستعدا للاقتناع بخطـأ تفسيره ، اذا استطاع انسان أكثر منه علما ومعرفة ان يقنعه بغير رأيه من واقع الكتاب المقدس ·

وان الترجمات الكثيرة للكتاب المقدس ، الى الآف اللغـات واللهجات ؛ ودور الكتاب المقدس التى تهتم بهذه الترجمات وبتوزيع الكتاب فى كل أنحاء العالم ، انما هى ثمرة رائعة من ثمرات المبـدأ الانجيلى ·

ـ ٢ ـ
المبـــدأ الثانى

الخلاص بالايمان وحـــده

وقد كان هذا المبدأ هو الضياء الذى أنار طريق الحياة أمام مارتن لوثر ، والذى أعاد اكتشافه من واقع دراسـته لكلمة الله ، كما ذكرنا فى حديثنا عن حياة لوثر ٠٠٠

لقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى تفرض على النـاس بعض الفروض والمراسيم والأسرار تعتبرها لازمة للمصـالحة مع الله ٠٠ وكان النـاس يضطرون الى تقـديم الصلوات فى مزارات القديسين والشهداء ، ويزورون الأماكن المقدسة معتقدين انهم بذلك يتقربون الى الله وينالون البركة الروحية ، فتغفر لهم خطاياهم ، ويتصالحون مع الله ، وينالون السلام ٠

وقد جرب مارتن لوثر كل هذه الطرق ، وتمم هذه الفروض ، ومع ذلك لم يشعر بالسلام ٠٠٠ شعر بأن الاله البـــار القدوس لا يمكن أن ترضيه هذه الممارسات وهو الاله الذى يتطلب الكمال من الانسان ٠ ومن هو الانسان الكامل الذى يستطيع أن يرضى هذا الاله المقدس ، مهما عمل من فروض ، اذ الجميع أخطـأوا وأعوزهم مجد الله ٠ وبعد كفاح روحى طويل أشرق نور الحق على ذهنـه ، فعرف أن الغفران الذى يطلبه هو عطيه الله المجـانية ، التى يمكن أن يحصل عليها الانسان بمجرد الايمان بيسوع المسيح ٠٠٠ وان قبول الله لهذا الايمـان كواسطة للخلاص ، ليس حقــا يطالب به الانسان الله ، بل هو نعمة من الله ، ورحمة منه ٠٠٠ فان الله ليس ملتزما بأن يقدم الخلاص الى الانسان لمجرد ايمانه ، ولكنه بحسب رحمته الكثيرة ، ارتضى أن يقبل الايمان كوسيلة للخلاص ، ورضى

ان يحتسب بر المسيح ، للانسان المؤمن • ومع أن الانسان لا يكون بارا بالفعل ، لكنه يتبرر أمام الله بالايمان بيسوع المسيح •••

هنا وضحت آيات الكتاب المقدس أمام مارتن لوثر ، وتجلت الحقيقة أمام عينيه •

فاذا كان الناس أمواتا بالذنوب والخطايا ، وبالطبيعة كانوا أبناء الغضب « الله الذى هو غنى فى الرحمة ••• من أجل محبته الكثيرة التى أحبنا بها ، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح ، وأقامنا معه ، وأجلسنا معه فى السماويات فى المسيح يسوع ••• بالنعمة انتم مخلصون بالايمان • وذلك ليس منكم • هو عطية الله • ليس من اعمال كيلا يفتخر أحد » •

(أفسس ٢)

ان الفكر الانجيلى يؤكد ان الخلاص هو بنعمة الله وحدها • فالتبرير لا يمكن أن يكون بالايمان والأعمال معا ، فهو اما بالنعمة أو بالأعمال ، ولا يمكن أن يكون بكليهما معا • وكلام الله واضح فى هذا الأمر اذ قال بولس الرسول بوحى من الله فى رسالة رومية ص ١١ : ٦ « فان كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال • والا فليست النعمة بعد نعمة • وان كان بالأعمال فليس بعد نعمة • والا فالعمل لا يكون بعد عملا » •

ان عقيدة الخلاص بالنعمة تمجد عمل المسيح المخلص على الصليب ، وتجعل له قيمة لا حدود لها ، وكفاية كاملة للخلاص ، والا يكون المسيح قد مات بلا سبب ••• لكنه مات لأجل خطايانا ، وقام لأجل تبريرنا ، وعمله فى هذا الأمر كامل لا يحتاج الى مساعدة من البشر •

أما الأعمال الصالحة فلابد منها ، اذ هى نتيجة تنبع من الايمان الحى الحقيقى ، الا أنها لا تجلب فى حد ذاتها الرحمة

والغفران • فالأعمال الصالحة تتبع الايمان ، وهى دليل الخلاص لكنها ليست سببا له ، ذلك لأن الايمان يوحد نفس الانسان مع المسيح ، ويغير مجرى البركات للتائبين •

فالتبرير مجانى••• الخلاص مجانى••• ليس لأنه بلا قيمة ، بل لأن قيمته أغلى من أن يدفعها الانسان ••• فدفعها المسيح بحياته اذ قدم ذاته فدية على الصليب •

يقول بولس الرسول فى رسالته الى أهل غلاطيه « اذ نعلم أن الانسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بايمان يسوع المسيح ، آمنا نحن ايضا بيسوع المسيح لنتبرر بايمان يسوع لا بأعمال الناموس • لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما •

لست أبطل نعمة الله • لأنه ان كان بالناموس بر (يقصد تبريرا للناس) فالمسيح اذا مات بلا سبب » (غل ٢ : ١٦ ، ٢١)•

من هذا المنطلق ركزت الكنيسة الانجيلية فكرها واتجهت نحو العبادة الروحية ، واعتبرت علاقة الانسان الروحية بالله هى جوهر الحياة ولم تنسب البركات الروحية الى الطقوس والممارسات والفرائض الشكلية ، والعبادة الطقسية من أصوام وصلوات معدة سابقا وحفظ أيام وشهور وسنين • ولم تهتم بشكل العبادة قدر اهتمامها بجوهرها وروحها باعتبار ان الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى ان يسجدوا •

ومن هذا المنطلق أيضا ، كان الفكر الانجيلى من ناحية الفرائض أو أسرار العهد الجديد • فبينما اعتقدت الكنائس التقليدية بأسرار سبعة هى : المعمودية ، والتثبيت ، والاعتراف ، والعشاء الربانى ، والرسامة ، والزيجة ، والمسحة المقدسة ؛ ونسبت الى كل سر من هذه الأسرار فوائد وبركات الهية ـ فان الكنائس الانجيلية اعتقدت بفريضتين فقط هما المعمودية ، والعشاء الربانى•

ولم تنسب الكنيسة الانجيلية الخلاص الى اى من هاتين الفريضتين • صحيح أن الكنائس الانجيلية اختلفت فيما بينها بشأن هاتين الفريضتين فنادت بعض الكنائس بمعمودية الكبار فقط ، على أساس ان المعمودية تتم بعد الايمان والاعتراف بالمسيح ، ونادت بعض الكنائس بمعمودية الأطفال ، باعتبارهم جزء من الأسرة المسيحية التى يعمل فيها روح الله القدوس ؛ ولكن جميع الكنائس الانجيلية لم تنسب الخلاص الى المعمودية ، بل الى الايمان • وكثيرون ممن اعتمدوا طقسيا ، ولم يكن ايمانهم حقيقيا هلكوا مثل سيمون الساحر •

كذلك فى فريضة العشاء الربانى ، فقد قالت بعض المذاهب الانجيلية بالرأى الزونجلى نسبة الى زوينجلى الذى قال بأن هذه الفريضة مجرد تذكار لموت المسيح دون أن تكون له فاعلية على الاطلاق ، بل هو مجرد شهادة لايمان المتناول ؛ وقالت بعض المذاهب الأخرى مثل الكنيسة الانجيلية المشيخية بأن العشاء الربانى له بركة خاصة اذ أن الروح القدس يرافق ممارسته ويوحد بين المؤمنين وبين المسيح الذى يحضر الفريضة روحيا ، ويتناولونه بالايمان قوة لحياتهم وبذلك تعتبر الفريضة من وسائط النعمة لكنها لا تعطى الخلاص لغير المؤمنين ؛ وقالت الكنيسة اللوثرية انه وان كان الخبز والخمر لا يتحولان فى جوهرهما الى جسد المسيح ودمه ، الا أن المسيح حاضر فى الفريضة جسديا على منوال سرى•• لكن الفريضة بلا فاعلية لغير المؤمنين لأن عدم الايمان يمنع فاعلية السر •••

وكل هذه الآراء تختلف عن رأى الكنيسة التقليدية التى تعتقد بتحول الخبز والكأس الى جسد المسيح ودمه حقيقة وأن لهذا السر فاعلية فى من يتناوله بصرف النظر عن ايمان المتناول منه • لكن الكنائس الانجيلية كلها ترى أن الخلاص يتم بالايمان ، والتقدم الى مائدة الرب يكون بعد الخلاص تعبيرا عن الشركة فى جسد المسيح •

ـ ٣ ـ

المبـدأ الثالث

كهنوت جميع المؤمنين

وربما كان هذا المبـــدأ هو الفـــكرة الأساسية فى الاصلاح الانجيلى ، والذى تدور حوله كثير من المبـادىء الأخرى ، حسبما يرى كثيرون • فالاصلاح الانجيلى الغى فـكرة الكهنوت الخاص والمتميز ، والذى بموجبه يقـام نظام خاص أو طبقـــة خاصة من الناس ، يتوسطون فى العبادة بين الله والنـاس كما كان الحـــال فى النظام اليهودى ؛ وأعلن أن جميع المؤمنين بامكانهم أن يتصلوا بالله رأسا دون وسيط •

ولو اننا درسنا الكتاب المقدس بعناية ، لعرفنا ان الكاهن هو انسان من البشر ، يكون وسيطا بين النـــاس والله ، ليقـدم الذبائح والقرابين والصلوات نيابة عن البشر ، ليصالحهم مع الله ، ويكفر عن خطاياهم ، ويتشفع فيهم قدام الله •

وهذه الوظيفة ليست موجودة فى الديانة اليهودية فحسب ، بل نراها فى عدد كبير من الديانات الوثنية • وهذا لا يعنى صدق الديانات الوثنية ، وانما هو تعبير عن احساس الناس فى كل زمان ومكان بخطاياهم ضـــد الاله ، أيا كان تصورهم لهـــذا الاله ، وشعورهم بضرورة ارضائه والتكفير عن خطاياهم بتقـديم ذبائح لترضيته ، وذلك عن طريق وسطاء يقدمون هذه الذبائح والصلوات الى الله ، هم الكهنة •

وفى النظام اليهودى شريعة مفصلة للكهنة والذبائح ، اعطاها الله لموسى ، لتكون رمزا الى ذبيحة المسيح ، التى هى التكفير الحقيقى عن الخطايا • فالذبيحة هى تقديم نفس لله عن نفس أخرى مدنسة بالخطايا ؛ وطبيعى ان الذبائح الحيوانية لم تكن قادرة أن تكفر عن ذنب الانسان • فالله لم يكن يقبل موت الحيوان نيابة عن الانسان ، ولكنه كان يقبل دم الذبيحة باعتبارها رمزا الى دم المسيح ، الذى كان تدبيرا الهيا منذ الأزل لخلاص الانسان • لذلك كان على الكاهن أن يقدم الذبائح مرارا وتكرارا كما ذكر كاتب الرسالة الى العبرانيين قائلا :

« وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مرارا كثيرة تلك الذبائح عينها التى لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية » •
(عب ١٠ : ١١)

وعندما جاء الرب يسوع الى أرضنا فى صورة الناس ، جاء كاهنا على رتبة ملكى صادق وهى أعلى من رتبة هرون رئيس الكهنة حسب شريعة موسى ، وقدم نفسه لله مرة واحدة ذبيحة عن جميع الخطايا ، لأن ذبيحته فى قيمتها كانت كافية للتكفير عن كل الخطايا لذلك قيل عنه :

« المسيح قدم نفسه مرة واحدة » (عب ٧ : ٢٧) « وبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس الى الأبد عن يمين الله ••• لأنه بقربان واحد قد أكمل الى الأبد المقدسين » (عب ١٠ : ١٢ ، ١٤) • وعلى هذا الأساس لم تبق هناك حاجة الى كهنة متغيرين يحلون محل بعضهم البعض ، لأن كهنوت المسيح لا يزول كما قيل « وأولئك قد صاروا كهنة كثيرين من أجل منعهم بالموت عن البقاء ، وأما هذا فمن أجل أنه يبقى الى الأبد له كهنوت لا يزول » (عب ٧ : ٢٣ ، ٢٤)

الا أن الكنيسة بوجودها فى هذا العالم ، وتعرضـها لعوامل الضعف الانسانى ، ابتدأت تدريجيا أن تعطى لرجال الدين سلطانا على حياة الناس ، حتى عندما جاءت القرون الوسطى كانت سلطة الكهنة رهيبة كما أسلفنا فى الرسالة الأولى من هذه الأحاديث ٠ وقد جعلت الكنيسة من الكهنة أو رجال الاكليروس وسطاء بين الله والناس ، وأوكلت اليهم قبول الاعترافات من الناس ، وحلهم من الخطية ، واعتقدت انهم فى فريضة العشاء الربانى يقومون بتكريس وتقديم ذبيحة المسيح كل مرة يمارسون فيها هذه الفريضة ، وهكذا اتخذت الكنيسة لنفسها ولرجالها سلطات واسعة وصلت الى حـد حرمان الانسان من السماء ومن الحياة الأبدية ٠

لأجل ذلك كان من بين المبـادىء الهامة التى أعلنها مارتن لوثر ، ومن بعده قادة الاصلاح الانجيلى ان من حق كل مؤمن أن يتقـدم الى الله مباشرة دون وسيط ، وان السيد المسيح جعل جميع المؤمنين ملوكا وكهنة لله ٠ وكل من يتوب توبة صادقة ويعترف الى الله بخطاياه ، ينـال الغفران دون ما حاجة الى وساطة بشرية ٠ فكل انسان يمكنه ان ينال الرحمة من الله بواسطة الوسيط الوحيد والشفيع الوحيد الرب يسوع المسيح ٠ وأفضل طريق للاتصال بالله هو الصلاة والاتحاد الشخصى بالله ٠ وحقائق الدين مفتوحة أمام الجميـع ، وقد أعلن الله ارادته فى الكتاب المقـدس المفتوح أمام الجميع ٠ هذه العقيدة جعلت كل انسان يشعر بمسئوليته الخـاصة تجاه الله ، فبدأ الناس يسيرون فى الطريق الجديدة التى جعلتهم رجالا ونسـاء أقوياء فى الروح والأخلاق ، وحررتهم من السيطرة الكهنوتية ، فتخلصوا من الخوف الاكليريكى ، واعتقوا من السلطان الكنسى ، ولم يعـد لسيف الحـرمان المسلط فوق رقابهم قوة تخيفهم ٠٠٠

والواقع أن تقسيم الناس الى اكليروس وعلمـانيين ليس تقسيما كتابيا وانما هو وليد فكر بشرى واستحسان انسانى ٠

فكلمة « علمانى » ترجمة لكلمة "lay" الانجليزية المأخوذة من الكلمة اليونانية (laikos) التى دخلت الى اللغـات الغربية الحديثة فى الصورة اللاتينية (laicus) وأصل الكلمة (Laos) هى تعنى « شعب الله » ـ لكن مفهوم كلمة (علمانى) تغير بمرور الوقت حتى اصبحت تعنى الشخص غير المؤهل فى ميدان ما ، فيقال أن فـلانا علمـانى فى الطب أى أنه غير حاصل على بكالوريوس الطب ؛ أو علمانى فى القـانون أى غير حاصـل على ليسـانس الحقوق ـ وفى الكنيسة يشار الى غير المرتسمين بأنهم علمانيون أى ليست لهم صفة دينية بالمقارنة بالاكليروس ٠

وبذلك خرجت كلمة علمـانى عن معناها الأصلى ، الذى هو « شعب الله » ٠

وكلمة (اكليروس) مأخوذة من الكلمة اليونانية (Kleros) ومعناها أصلا مأخوذ من العهد القـديم عنـدما يتحدث عن اللاويين والكهنة الذين صار الرب نصيبهم (عدد ١٨ : ٢٠) فمعنى كلمة (Kleros) = نصيب معين ، ويستخدم العهـد الجديد الكلمة بهـذا المعنى فى مناسـبات كثيرة (أعمال ١ : ١٧ ؛ أع ٨ : ٢١) وأحيانا تترجم « ميراث » (كو ١ : ١٢) وقد وصف بهذه الكلمة جمـاعة المؤمنين الذين تحت رعاية أحـد الرعاة فى تحذير بطرس للرعاة أن يكونوا « لا كمن يسود على الأنصبة » (١ بط ٥ : ٣) وهكذا نرى ان معنى الكلمة يشير الى جميع الرجال والنساء الذين يشتركون فى هبات الله الروحية ، الذين لهم الرب نصيب ـ وبذلك نرى فى العهد الجديد أن كلمة علمانى (laos) وكلمة اكليروس (Kleros) تشـير الى نفس الأشـخاص لا الى طبقتيـن

مختلفتين ، فكل واحدة تشير الى افراد الكنيسة من زاوية معينة ، الأولى تشير اليهم باعتبارهم شعب الله ؛ والثـــانية تشير اليهم باعتبارهم وارثين للفداء والمجد وهبات الله · وبذلك لا يكون هناك فرق بين المؤمنين ـ وقد قال مارتن لوثر ان كل شخص معمد باسم المسيح هو فى مقام القسيس أو الأسقف أو البـــابا ، ولا يختلف شخص عن الآخر الا من ناحية الوظيفة فقط ·

والرسامة فى نظر الكنيسة الانجيلية ليس معنـاها تسليم موهبة روحية معينة من شخص الى آخر ، وهو ما يعـــرف بسر الكهنوت عند التقليديين ؛ ولكن الرسامة فى نظر الكنيسة الانجيلية هى اقرار الجماعة بمواهب معينـــة أعطيت من الله لشخص معين ، وفرزه وتخصيصه لخدمة معينة فى الكنيسة ، دون أن تكون لديه سيادة على غيره فى الجسد الواحد · فالجميع متساوون أمام الله · والجميع فى حاجة الى نعمته ···

ـ ٤ ـ

المبـدأ الرابع

حـرية الضمير المسيحى

لقد حرمت كنيسة القرون الوسطى على الناس التفكير الحر ، حتى قيل انها فى خلال الاربعين سنة التى سبقت الاصلاح الانجيلى احرقت نحو ١٣٠٠ شخصا بتهمة الهرطقة ٠٠٠ وقد كانت الهرطقة فى مفهوم الكنيسة هى ان يفكر الانسان لنفسه ، أو يتساءل متشككا فى سـلطة الكنيسة ٠ كان للكنيسة وحـــدها حق اصدار الأحكام والقرارات المتعلقة بالأمور الدينية ، وكان على المسيحى أن يقبلها بدون سؤال أو استفهام ، وهى وحدها تستطيع ان تخلصه من هذا الخطأ ٠٠٠

لكن فجر الاصلاح أشرق على الفرد المسيحى بنور حرية الفكر والضمير ؛ وقد لاحظنا كيف ان لوثر عند محاكمته قال ان ضميره مقيد بكلمة الله ، وليس من الصواب أو الأمان أن يتصرف الانسان ضد ضميره ٠٠٠

ومن أقوال لوثر الشهيرة عن قيمـــة الفـرد وحرية ضـميره المسيحى :

« وحدى ولدت الى هذا العالم ، ووحدى يجب أن أجابه الحياة ومسئولياتها ، ووحدى سأقف أمام الديان العظيم ٠٠٠ لن يقف أحد مكانى ، ولا بينى وبين الله ـ لا أسقف ولا كاهن ولا مجمع كنسى ولا قانون كنسى ولا تقليد كنسى ٠ بل سأقف أمام الله عاريا ، وعلى تقع المسئولية تجاه الديان خالقى » ٠٠

وتتولد عن حرية الضمير المسيحى ، قيم كثيرة فى مختلف نواحى الحياة ، سواء فى الجانب الفكرى أو السياسى أو الاجتماعى ... لذلك كانت الكنائس الانجيلية تدرب أبناءها على الحرية ، ولا نقصد الفوضى ، بل الحرية الملتزمة المسئولة الواعية ؛ وهكذا تؤيد كل نظام يدعو الى هذه الحرية والى الديمقراطية . هذا الاعتقاد بالديمقراطية نابع من اعتقاد الانجيليين بالله الذى هو أب لجميع الخلائق البشرية ، الذى وهب لخلائقه حرية الارادة والاختيار . وهكذا فالانجيلى بدوره يرغب أن يهب الحرية للآخرين ، فلا يحرم غيره من حرية الرأى ، والقول والعقيدة ....

وقد كان لهذا المبدأ الأثر العميق فى حياة الشعوب ... فما كادت البروتستانتية تظهر الى حيز الوجود حتى ابتدأت افكار الناس تتجه الى الحرية والديمقراطية حتى أن أحد المفكرين المشهورين ويدعى ماكس فيبر Max Weber قال « أن التطورات العظيمة التى طرأت على تفكير العالم سياسيا واقتصاديا ، كانت نتيجة لما قدمه لوثر وكلفن من فكر » .

وكتب المؤرخ الشهير والكاتب الانجليزى العظيم ماكولى عن أثر البروتستانتية فى القرون السادس عشر الى التاسع عشر فقال :

« كانت أجمل وأخصب مقاطعات أوربا وهى تحت حكم الكنيسة قبل الاصلاح غارقة فى الفقر ، والرق السياسى ، والسبات العقلى . وقد تحولت البلدان البروتستانتية التى كانت يوما ما مثالا صارخا للقحط والبربرية ، الى حدائق غناء بفضل نشاط ومهارة أبناء الكنيسة المصلحة ، وصار من بين سكانها النخبة الممتازة من الفلاسفة والشعراء وأبطال السياسة » .

ولو اتيح لحملة مشعل الاصلاح اليوم ان يبعثوا من قبورهم ، وان يعودوا الى دنيانا ، لسمعنا اصواتهم تدوى بالالحاح لكى يتمم ابناؤهم واحفادهم الاصلاحات التى بدأوها ، ليكون مصباح الحرية الانسانية دائم التوهج والاشراق ، وهكذا يستنير الضمير بنور المسيح ، وتنطلق الارادة المتحررة بالمسيح الى كل عمل خلاق ، ليأخذ المسيح مكانته الأولى فى الحياة ، لا بتشريعات الناموس الجامدة ، بل باختيار الارادة الحرة السعيدة ·

الرسالة الرابعة :

الاصلاح الديني
ووحدة الكنيسة

تساءلنا فى بداية هذه الأحاديث عما اذا كان الاصلاح الانجيلى قد أحدث شرخا فى كنيسة المسيح وأفقدها مظهر الوحدة الجميل باعتبارها « كنيسة واحدة جامعة رسولية » كما نعلن دائما عند تلاوة قانون الايمان . ولعل مثل هذا السؤال قد جال فى خواطر الكثيرين ممن تزعجهم وتقلقهم الانقسامات الطائفية فى كنيسة الله الواحدة ، فألقى ظلالا على فكرتهم عن الاصلاح البروتستانتى ، وجعلهم يتوجهون اليه باللوم والعتاب .

وليس هناك من شك فى أن رغبة قلب الله هى أن تكون كنيسته متحدة ، فهذه هى الطلبة التى رفعها الرب يسوع المسيح فى صلاته الكهنوتية الى الآب عندما صلى قائلا :

« أيها الآب القدوس احفظهم فى اسمك الذين اعطيتنى ليكونوا واحدا كما نحن ... ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط ، بل أيضا من أجل الذين يؤمنون بى بكلامهم ، ليكون الجميع واحدا كما انك أنت أيها الآب فى ، وأنا فيك ، ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ، ليؤمن العالم أنك ارسلتنى » .

(يو ١٧ : ١١ ، ٢٠ ، ٢١)

ان انقسام المسيحيين بعضهم على بعض عثرة أمام العالم ، وعقبة تقف فى طريق ايمان العالم برسالة المسيح .

وبولس الرسول يكتب الى أهل افسس داعيا اياهم الى الوحدة قائلا :

« فاطلب اليكم انا الأسير فى الرب أن تسلكوا كما يحق للدعوة التى دعيتم بها ، بكل تواضع ووداعة ، وبطول أناة ،

محتملين بعضكم بعضا فى المحبـــة ، مجتهـدين أن تحفظوا وحدانية الروح ، برباط السـلام . جسد واحد وروح واحد كما دعيتم أيضا فى رجاء دعوتكم الواحد . رب واحد ، ايمان واحد ، معمودية واحدة ، اله وأب واحـــد للكل ، الذى على الكل ، وبالكل وفى كلكم » (أفسس ٤ : ١ ــ ٦)

فهل كان الاصلاح الانجيلى هو العـامل الأساسى فى انقسام الكنيسة وفقدانها هذه الوحـدة ، وما هو نوع الوحـدة المنشودة فى الكنيسة ، وكيف نسعى لتحقيقها ؟

هذه هى الأسئلة التى نحاول ان نفكر فيهـا الآن محاولين الاجابة عليهـا . وان كانت الاجابات عليها قد يتداخل بعضها فى بعض ، لأن الموضوع مترابط ، انما نحاول لأجل ترتيب الفكر أن نتناولها سؤالا بعد الآخر .

أولا : هل كان الاصلاح الانجيلى هو العامل الأساسى فى انقســام الكنيسة ؟

لا ننكر أبدا ان الاصـلاح الانجيلى أو البروتستانتى الذى ظهر فى القرن الســادس عشر كان حـدثا هاما ترك بصماته على الكنيسة المسيحية فى كل العالم ؛ وانشأ فكرا متجددا متميزا فى الكنيسة منذ حدوثه ... لكننا لا نستطيع أن ننسب اليه وحـده تهمـة ايجاد شرخ فى كنيسة المسيح ، أو نعتبره وحـده بأنه عامل الانقسام . فلم تكن الكنيسة المسيحية قبل عصر الاصلاح متحدة بالصورة التى يتمناها كثيرون ، ومن يدرس تاريخ الكنيسة يلاحظ أنه على مر العصور حدثت عـدة انقسامات فى الكنيسة ، بعضها بسبب خلافات عقائدية وبعضها بسبب اتجاهات ومنافسات قومية أو اقليمية ــ ولم يكن غريبا أن تواجــه الكنيسة بين حين وآخر

اختلافات فى الرأى أو انحرافات فى التعـليم ... كان ذلك أمـرا طبيعيا ، وكان الطريق الطبيعى لعلاج تلك الاختلافات هو اجتماع قادة الكنيسة ومفكريهـــا على هيئة مجمـــع كنسى للنظر فى تلك الخلافات ، ومحاولة الوصول الى رأى موحد فيها .

ولعل أول مجمع كنسى هو ذلك المجمع الذى اجتمع فيه الرسل والمشايخ فى أورشليم لمناقشة موضوع قبـول الأمم غير اليهود فى الكنيسة ، والذى ورد ذكره فى الأصحاح الخامس عشر من سـفر أعمال الرسل ، والذى بموجبـه سمحت الكنيسة بدخول الأمميين الى عضويتها دون أن تلزمهم بالختان وحفظ الناموس اليهودى .

ومن المجامع الكنسية الشهيرة ، مجمـع نيقية عام ٣٢٥ م الذى أفحم فيه أثناسيوس انرسولى شـماس الاسكندرية المصرى خصمه أريوس الذى انكر لاهوت السيد المسـيح ، وبموجب ذلك المجمع وقراراته وصلت الينا صيغة قانون الايمان النيقوى .

وقد تعاقبت بعد ذلك المجامع الكنسية المسكونية مثل مجمـع القسطنطينية سنة ٣٨١ ومجمـع أفسس سنة ٤٣١ ، واستطاعت الكنيسة فى هذه المجامع ان تحفظ وحدتها ونقاوة ايمانها ..

الا انه فيما بعـد وقعت هذه المجامع المسكونية تحت تأثير النفوذ السـياسى ، فاختلطت الشـئون العقـائدية بالمنافسات والحزازات التى ثارت بين الأمم والشعوب ، وبالنزاع على السلطة بين البطريركيات الكبرى مثـل روما وانطاكية والقسطنطينية والاسكندرية ونتيجة لذلك حـدث فى الكنيسة انقسامان خطيران قبل الانقسام الذى حدث بسبب الاصلاح البروتستانتى فى القـرن السادس عشر .

١ ـ فالانقسام الأول حدث فى القـــرن الخامس الميـلادى عندما انفصلت كنيسة بطريركية الاسكندرية وبعض المؤيدين لهـا عن سائر الكنائس فى العـالم • على أثر مجمـــع خلقدونية سنة ٤٥١ م ـ ولا نريد ان ندخل فى التفاصيل لأنها كثيرة ولكن الخلاصـــة ان خلافا عقـائديا استحكم بين بطـريرك الاسكندرية ديوسقورس وبطـريرك القسطنطينية فلافيـسان ، بسبب رأى أحد الرهبان اسمه افتيخوس ـ قال افتيخوس ان الرب يسوع كانت له طبيعتان قبل التجسد ولكن بعـــد التجسد اتحدت الطبيعتان فى طبيعة واحدة • وكان هذا الرأى أقرب الى رأى الرهبان المصريين ، وعكس ما كانت تعتقده باقى كنـائس العـــالم التـــابعة لبطـريركيات انطـــاكية والقسطنطينية وروما • وقد عقدت عدة اجتماعات لبحث هذا الخلاف اللاهوتى ، كان البطاركة يحيئون بعضهم بعضا فيها الى ان عقـــد مجمع خلقـدونية سنة ٤٥١ م وحكم بحرمان بطريرك الاسكندرية وعزله ونفيه واعتباره هرطوقيا لأنه نادى بان للسيد المسيح المتجسـد طبيعة واحـــدة ، وسميت تلك النظرية بهرطقة الطبيعة الواحدة Monophysife Heresy لكن كنيسة الاسكندرية أصرت على رأيهـا وحكمت بحرمان باقى البطاركة فى العالم ، وساندتها فى ذلك بعض الكنائس فى بعض الأقاليم المحدودة مثل الكنيسة الأرمينية فى أرمينيا ، وكنيسة اليعـاقبة فى سوريا والعراق ، وكنيسة الحبشة •

وانشقت هذه الكنائس عن باقى كنائس العالم وأطلقت عـلى نفسها اسم الكنائس الارثوذكسية وربطت نفسها واسـمها بالاقليم الذى توجـــد فيه وهكذا ظهـــرت الكنيسة القبطية الارثوذكسية فى مصر ، والأرمينيـــة الأرثوذكسية والسريان الأرثوذكس والأحباش الأرثوذكس • هذه الكنائس اعتبرت نفسها وحدها أنها على حق ، ولم تقبـــل شـيئا من قرارات

المجامع الكنسية ابتداء من مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م ، وانعزلت تماما عن باقى كنائس العالم منذ ذلك التاريخ ٠

٢ ـ والانقسام الثانى الكبير حدث فى القرن الحادى عشر وهو انفصال باقى كنائس الشرق المشهورة باسم الروم الأرثوذكس عن الكنيسة الجامعة ـ وكانت بوادر ذلك الانفصال تسرى فى الكنيسة بين كنائس الشرق وكنائس الغرب منذ القرن التاسع ، وذلك بسبب خلافات بين بطاركة الشرق فى القسطنطينية وأنطاكية وبطريركية روما ٠ كانوا جميعا يؤمنون بنفس العقيدة ، ولهم نفس الرتبة ، ولكن بطريرك روما كان فى عاصمة الدولة الرومانية ، واعتبر نفسه خليفة لبطرس الرسول الذى قيل عنه أنه زعيم الرسل ، وكان باقى البطاركة لا يعترفون بسيادة بطريرك روما عليهم ـ وزادت الخلافات حدة بعض الاختلافات الحضارية بين الشرق والغرب فقد كانت كنائس الغرب تستخدم اللغة اللاتينية فى القداس، أما فى الشرق فكانت الكنائس تستخدم لغة اهل البلاد ؛ وكانت الكنيسة الغربية تمنع زواج القسوس بينما أباحت الكنائس الشرقية ذلك ـ وأخيرا تعللت الكنائس ببعض الاختلافات العقائدية البسيطة مثل انبثاق الروح القدس هل هو من الآب فقط كما يقول الشرقيون ، أم من الآب والابن كما يقول الغربيون ؛ وهل يقدم الخبز والكأس للناس كما يفعل الشرقيون ، أم يقدم الخبز فقط مغموسا فى الخمر كما يفعل الغربيون ٠ وفى عام ١٠٥٤ م تم الانقسام بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية ، وأصدر كل فريق حرمات ضد رؤساء وأفراد الفريق الآخر ٠ واطلقت الكنائس الشرقية على نفسها اسم الكنيسة الأرثوذكسية ومعنى الكلمة « أرثوذكس » هو مستقيم العقيدة ، وشملت بلاد اليونان ، والبلقان ،

وروسيا ، وآسيا الصغرى ، كما أن لها اتبـــاعا فى سوريا ومصر يعرفون باسم الروم الأرثوذكس ، وهم يختـلفون عن الأقباط الارثوذكس ٠

واطلقت الكنيسة الغـــربية على نفســـها لقب الكنيســـة « الكاثوليكية » ومعنى اللفظ الجامعة باعتبـــار أنهـا هى الكنيسة الجامعة دون غيرها ٠

ربما لا نشعر كثيرا بهذه الانقسامات فى الكنائس التقليدية فى بلادنا لأن غالبيـــة المســـيحيين يتبعون الكنيســـة القبطيـــة الأرثوذكسية ونتصور أن الاختلافات المتعددة موجودة فى الكنائس البروتستانتية وحدها ولكن الواقع ان بلادا أخرى تشعر بهـــذه الاختلافات بصورة أوضح ٠

وحتى فى بلادنا يمكننا أن نجد بطريركية للأقباط الأرثوذكس ؛ وأخرى للروم الأرثوذكس ؛ وأخـرى للكاثوليك ؛ علاوة على فروع أخرى للكاثوليك لها اصل أجنبى مثل المارونيين وغيرهم ٠

وبالرغم من أن الفوارق فى العقيدة بين هـــذه الكنائس أقل كثيرا من الفوارق بينهـــا وبين الكنائس البروتستانتية ، لـــكن محاولات رأب الصدع وعـــلاج الانقسام بينها فشلت حتى العصر الحاضر ؛ وان كانت هناك محاولات تجرى بينها من حين الى آخر للتفاهم واللقاء معا ٠

نستطيع أن نستخلص من هـــذه الحقـــائق ان الاصـــلاح البروتستانتى ليس وحـده عامل الانقسام فى الكنيسة ؛ والواقع اننا نستطيع أن نلمس من دراستنا لتاريخ الاصلاح انه جاء نتيجة اضطرارية لتعسف قيادات الكنيسة وعـــدم مرونتها وعدم تقبلها لمحاولات تجديد حياتها من الداخل ، والاصرار على السيادة ٠

وقد تكررت هذه الظاهرة مرارا فى تاريخ نشأة المذهب الانجيلى فى بلاد كثيرة فى العـــالم ومنها بلادنا المصرية ؛ فان كثيرين ممن حملوا رسالة الانجيل الى بلادنا فى القرن التـــاسع عشر ، ومنهم ارساليات من المانيا وانجلترا وامريكا ، لم يحاولوا انشاء كنيسة انجيلية مستقلة ، بل ارادوا تعليم الكنيسة القائمة والموجودة فى مصر ، لكنهم وجدوا مقاومة شديدة ، وجمودا أشد من قيادات تلك الكنيسة ، فاضطر بعضهم الى الرحيل ؛ والبعض الآخر وجد نفسه مضطرا لتكوين نواة كنيسة انجيلية ، تضم الذين وجدوا استنارة معينة من الانجيل ، وأرادوا أن يتعبـــدوا بالأسلوب الذى يرضى ضمائرهم ويريح نفوسهم ٠

ثانيا : ما هو نوع الوحدة المنشودة فى الكنيسة ؟

هذا ينقلنا الى سؤال آخر يتعلق بنوع الوحـــدة المنشودة فى الكنيسة ٠ هل المقصود بالوحدة هو التماثل التـــام ، والمطابقة الكاملة فى الفكر ودقائقه ، والنظام وتفصيلاته ؟ هل المقصود هو ان يتدرج خدام الكنيسة وقسوسها وأساقفتها تحت نظام هرمى ، فى قمته رئاسة واحدة أيا كان اسمها ٠

ان بعض البسطاء يتصورون ذلك فعلا ؛ بل ان البعض يظنون ان السيد المسيح عندما قال فى يوحنا ١٠ : ١٦ « ولى خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغى أن آتى بتلك أيضا فتسمع صوتى وتكون رعية واحدة وراع واحد » يظنون ان المقصود هو رئاسة بشرية واحدة لكنيسة موحدة ـ بينما الواضح ان السيد المسيح كان يقصد الخراف التى كانت فى حظيرة الأمم والتى اراد أن يأتى بها لتكون فى الكنيسة المســيحية التى هى رعيــة واحــدة له هو أى شخص المسيح ، الراعى الواحد لكنيسته ٠

ان الوحدة المسيحية ليست وحدة الرئاسة المنظورة ، لكنها وحــدة الخضوع لرأس الكنيسة واسـقفها العظيم الرب يســوع المسيح ؛ والتفتح لعمل روحه ، والانقياد لهـذا الروح ولارشاده ، انها وحدة الهدف ، ووحدة الروح ·

ان هذه الوحدة لا تعنى التماثل ، ولا الاحتواء ، ولكنها شبيهة باتحاد أقانيم اللاهوت ، كما طلب الســيد المسيح فى صــلاته الكهنوتية ··· وقد تتنوع الوظائف فى جوهر اللاهوت ، فالآب هو الخالق المبـدع حافظ وضابط والكل ، والابن هو الفــادى الـكلمة المتجسد ، والروح القــدس هو الاله الحـــال فى البشر مقدســهم ومرشدهم ومعلمهم ··· والاقانيم الثلاثة متحدة معا فى جوهـــر اللاهوت · والمحبة سائدة بينها ، فالآب يحب الابن ، والابن يحب الآب ويقبل وصيته ويتمم ارادته ، وفى تجسده على الأرض يفعـــل مشيئته دون أن يكون هناك تدرج فى الرتبة والمقام ، بل ان الاقانيم الثلاثة متساوون فى القدرة والمجد كما نقرأ فى اجابة السؤال السادس من أصول الايمان ·

ان وحـــدة الكنيسة لا تعنى أن الكنيسة يجب أن تخلو من التنوع ، والاختلاف فى بعض التفاصيل أو أساليب العبـادة ··· فان الكنيسة وهى على الأرض تسعى لتعرف مشيئة الله ، وتجاهد لكى تطيع ارشاد روحـه كما يمكنها أن تفهمـه ، ومن الطبيعى ان افرادها قد يختلفون قليلا أو كثيرا فى فهم مطـــاليب الله ، وعليهم بالتواضع والمعاناة أن يجاهدوا باخلاص للوصول الى فهم أعمق ، وادراك أوسع ··· على أن هذه الاختلافات لا ينبغى أن تهدد المحبة بين افرادها ومذاهبها ، ولا ينبغى ان تشيع الخصام بينها ، وعلى هذا الأســاس كان طلب الرسول الى أهل افسس ان يسلكوا كما يحق للدعوة التى دعاهم الله بها ···

« بكل تواضع ووداعة وبطول أناة محتملين بعضكم بعضا في المحبـــة ، مجتهـدين أن تحفظوا وحـدانية الروح برباط السلام » (أف ٤)

انها الوحدة في تنوع ··· هذا التنوع يحمل في طياته اختلاف مواهب الروح القدس المعطاة للكنيسة ولأعضائها ··· وما لم تفهم الكنيسة بكل قيـــاداتها حقيقة هذه الوحدة في تنوع ، فسوف تظل تسعى للتشابه والتماثل في النظام ، فتضل الطريق الى الوحـــــدة الحقيقية ، وتبحث عن وحدة شكلية ظاهرية تحمل بين طياتها بذور انقسام أشد وأعمق ، بين محاولات السيطرة والاحتواء ، ومشاعر التمرد والثورة ···

ان وحدة الكنيسة حقيقة قائمة ، اننـا لا نحـــاول نحن أن نوجدها بأنفسنا ولا بمجادلاتنا البشرية ··· لقد صلى المسيح لأجل هذه الوحدة ، وروح المسيح هو الذى يصنع الوحدة في الكنيسة . وما على أفراد الكنيسة وقياداتها الا الخضوع لعمل روح المسيح ، والتجـــرد من الذات ، لكى يسرى روح المسيح بقوة وحيـــوية في الكنيسة ، فيزيد احساسها بالوحدة ···

ان وحدة الكنيسة قائمة فعلا ، لأنها تعبد ربا واحدا ؛ والذى فداها واشتراها بدمه واحد ، ورجاؤها واحد ، وانتظارها واحد··· وما علينا نحن الا أن نبتعد عما يشوه صورة الوحدة في نظر العالم ، من مشاعر الأنانية والكبرياء والتعصب والجمود ···

ثالثا : كيف نسعى لتحقيق الوحدة المسيحية :

وأجد نفسى قد تطرقت تلقائيا الى السؤال الثالث وهو كيف نسعى لنحقق الوحــــدة ، وأرانى قد بدأت الاجابة فعلا ، فانننـا

لا نستطيع نحن أن نصنع الوحدة بأنفسنا ، لأنها نعمة من الله ، وهبة من المسيح استجابة لصلاته الى الآب ـ وهى صلاة مسموعة ومستجابة ولا شك ـ ان كل ما نستطيع أن نعمله هو أن نتفتح على بعضنا البعض كطوائف مسيحية ، ونتقبل بعضنا بعضا فى تواضع ومحبة وتقدير متبادل مجتهدين باخلاص أن نحفظ وحدانية الروح برباط السلام · اننا نسعى معا ، ونلتقى معا ، لنعرف كيف يقودنا الله معا الى الطريق الذى يريده هو · فنحن لا نستطيع أن نضع تخطيطا لشكل او نظام معين نتحد فيه أو نتجه نحوه ، ولا نستطيع أن نضع برنامجا للغد أو للأعوام القادمة فى هذا المجال بالذات ، لأن المستقبل ليس لنا ولكنه لله . وعلينا نحن أن نكون أمناء فى الحاضر ، وممتلئين من روح المسيح فى الحاضر ، لكى نعرف الى ماذا يقودنا الله فى المستقبل ··· نتعزف اليوم فى روح المسيح ، بالمعطيات والقدرات والمواهب التى أعطانا الله اياها . ولا نعرف ماذا سنعمل فى الغد ··· نتعاون معا فيما يمكن أن نتعاون فيه . ندرب نفوسنا على التمييز بين المعانى التى يمكن أن تختلط معا فتفسد شركتنا ، وتعكر صفو علاقاتنا ، فنميز بين التعصب المقوت ، والتمسك بالمبدأ ؛ ونميز بين الولاء لأفراد أو لمسلمات وبين الولاء للمسيح ؛ ونعرف حدودنا فيما ينبغى أن نحمله لنعلن ما نعتقده فى محبة واحترام ، دون أن نسىء الى غيرنا ؛ معتزين بحريتنا ومحترمين حرية غيرنا ـ هذه المعاناة ليكون لنا ولأعضاء كنائسنا هذا الروح تحتاج الى تدريب ، وهذه مسئولية قيادات الكنيسة فى كل طائفة ···

وان من بشائر عمل روح الله فى الكنيسة وفى التاريخ لتحقيق هذه الوحدة ، ما نراه قد حدث ويحدث فى الكنيسة الكاثوليكية من ناحية ، وفى الكنائس البروتستانتية وبعض الكنائس الأرثوذكسية من ناحية أخرى ···

فمنــذ أن دعا البــابا يوحنا الثالث والعشرين الى مجمع الفاتيكان الثــانى ، والكنيسة الكاثوليكية فى تفتح عجيب على الكنائس الأخرى بروح لم يسبق لها مثيل ، تدل على أن الحافز الى هذا التقارب والتفتح ليس رغبة انسانية بقدر ما هو ارشــاد الهى ــ وقد تجلت هــذه الروح فى كتابات كثيرين من اللاهوتيين الكاثوليك الذين أثروا الفكر المسيحى بمبادىء كتابية اصلاحية ، فهناك من نادى بكهنوت جميع المؤمنين ، وهناك من قبلوا الاشتراك مع كنائس أخــرى على مائدة الرب ، وهــكذا بدأ عصر جــديد ، فى لقاءات مثمرة ، وتقارب جميل ٠٠٠

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، شهد القرن العشرين حركات وحدوية فى الكنائس البروتستانتية وبعض الكنائس الأرثوذكسية ، لو أردنا أن نشرحها لما اتسع المقال لها لأنها متسعة للغاية ٠ فبعد أن كان المسيحيون المهتمون بنشر الدعوة المسيحية يعقــدون مجامع ومؤتمرات مرسلية ، شعروا بأن واجبهم الأول هو التعاون والشركة معا كتعبير عن روح المسيح الذى فيهم ٠

وتكون مجلس الكنائس العالمى كتعبير عن الحركة المسكونية التى تضم الكنائس معا ٠

كان ذلك المجلس هو ذروة الحــركات التى قامت للتقــارب المسيحى والعمل المشترك ٠

وقد جاءت المبادرة بانشاء مجلس الكنائس العالمى من الكنائس الانجيــلية فى أوربا وأمريكا وهى أغلبية بين المســيحيين فى تلك القارات ، وذلك لأن الفكر البروتستانتى من طبيعته أن يسعى نحو التقارب والتفاهم وكان أول اجتماع عام لهذا المجلس فى امستردام عام ١٩٤٨ ٠

ومجلس الكنائس العالمى يعلن عن ذاته بأنه شركة أخوية تتألف من الكنائس التى تقبل الرب يسوع المسيح ربا ومخلصا فليس هو كنيسة عليا تسيطر على الآخرين ، ولا هو الكنيسة الواحدة ، بل هو مجلس استشارى يدعو المسيحيين لكى يصلوا معا ويعملوا معا متعاونين • وهو منبر للأبحاث والمناقشات وابداء وجهات النظر وتقديم التوصيات للكنائس •

ويمكن تلخيص الأهداف التى سعى اليها المجمع فى العبارات التالية المقتبسة من قراراته فى أول اجتماع له سنة ١٩٤٨ اذ تقول :

« نحن لا نقدر أن نتحد لأن بيننا فوارق عميقة فى العقيدة ، على اننا لا نقدر أن نعيش منفصلين بعضنا عن بعض ، لأننا نؤمن باله واحد ، ونريد أن نسعى ونجاهد لتحقيق فكرة الكنيسة الواحدة المقدسة التى هى جسد المسيح • وان كنا لسنا مستعدين بعد لأن نبدأ شركة كاملة بعضنا مع بعض ، ونعمل كجسد واحد غير منقسم ، لكننا مستعدون الآن لنطرح عنا كل أساليب العزلة والانفصال ، وان نبدأ التباحث معا بالروح المسيحى ، ونعمل بالاشتراك معا كلما وجدنا غرضا مشتركا » •

وقد كان شعار مؤتمر أمستردام العبارة التى رددها ولا يزال يرن صداها فى العالم المسيحى « قد عزمنا أن نبقى معا » •

وقد توالت فيما بعد اجتماعات هذا المجلس فتجتمع جمعيته العامة مرة كل سبع سنوات ، ويحضرها الآف المندوبين من مختلف الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية فى العالم كما تعقد لجانه المختلفة جلسات متعددة والجدير بالذكر أن الكنيسة القبطية

الأرثوذكسية فى مصر من أعضاء هذا المجلس منذ السنوات الأولى لتأسيسه ويرجع الفضل فى ذلك الى طيب الذكر الراحل الأنبا صموئيل الذى درس اللاهوت فى جامعة برونستون اللاهوتية الانجيلية .

والواقع اننا لا نستطيع ان ننكر فضل هذا الرجل العملاق الذى كان أول من فتح نافذة أمام الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى مصر لتلتقى مع كنائس أخرى فى العالم منذ القرن الخامس الميلادى ، كذلك فان سنودس النيل الانجيلى بمصر من أعضاء هذا المجلس ـ كما يحضر المجلس بعض المراقبين من الكنيسة الكاثوليكية .

وفى الشرق الأوسط كان هناك مجلس مسيحى مسكونى يضم الكنائس البروتستانتية فى المنطقة وكنيسة واحدة أرثوذكسية للسريان الأرثوذكس فى لبنان ؛ واهتم المجلس بدخول كل الكنائس الى شركته ، وفى خلال الأعوام من ١٩٧٠ الى ١٩٧٤ دارت لقاءات ومفاوضات مكثفة ومطولة لكى تنضم اليه الكنائس الأرثوذكسية بنوعيها الخلقدونية وغير الخلقدونية اليه ، وأخيرا تم الاتفاق ووضعت لائحة خاصة للعضوية بموجبها انضمت جميع كنائس المنطقة الأرثوذكسية والانجيلية والأسقفية الى هذا المجلس ، وصارت جمعيته العمومية تضم ٦٦ ممثلا للكنائس منهم ٤٤ ممثلا للكنائس الأرثوذكسية بأنواعها و ٢٢ ممثلا لجميع الكنائس البروتستانتية فى المنطقة .

(ومما يسعد كاتب هذه السطور أنه كان أحد رؤساء هذا المجلس طوال فترة المفاوضات التى انتهت بانضمام الكنائس الأرثوذكسية الى المجلس واجتماع الجمعية العامة للمجلس فى قبرص سنة ١٩٧٤) .

واننا ندعو الله أن يعطي لجميع الكنائس روح التفتح والمرونة والتقبل والتواضع ، فبهذا يمكننا ان نكون بحق خاضعين لروح الله لكي يوحد قلوبنا معا ، وفي نفس الوقت ندعو قادة الكنائس لمزيد من اللقاءات اللاهوتية معا لمناقشة ما تصدره المجالس المسكونية من دراسات تهدف نحو فهم أعمق لمبادىء الشركة والوحدة المسيحية ، وما أكثر الدراسات التي أصدرها مجلس الكنائس العالمي في مختلف الموضوعات التي من شأنها تقريب فكر الكنائس بعضها نحو البعض : ومن بينها دراسة عن المبادىء الواجب تطبيقها بين الكنائس لكي لا تمارس تدخيل بعض أفراد غيرها في مذهبها (Proselytism) ، وفي نفس الوقت تعطى الحرية لكل شخص أن يعبر عن فكره وأن يختار المذهب الذي يتفق مع اقتناعه الشخصي ؛ وكذلك الدراسات والتوصيات الخاصة بعدم اعادة المعمودية لمن سبق ان اعتمدوا في كنائس تعتقد بالثالوث الأقدس ، والاعتراف المتبادل بالزواج الذي تجريه الكنائس على اختلاف عقيدتها ...

ان هذه الدراسات لا يفرضها أحد على اية كنيسة ، لكنها مجال للفكر والمناقشة المخلصة الجادة ، في طريق الوحدة المسيحية .

كذلك ندعو قادة الكنائس المختلفة ، ان يتقبلوا بروح التفتح والتسامح والأبوة الاجتهادات الفكرية التي يصل اليها بعض أبناء كنائسهم ، فلا يشهروا ضدهم سيف الحرمات والارهاب الفكري حتى يمكن أن يحتفظوا بعلاقتهم بالكنائس ويظلوا تحت رعايتها وارشادها ، حتى ولو اختلفوا قليلا في الفكر عن الآراء الرسمية للكنيسة .

واننـا ندعو جميـع الكنائس الا تنظر الى جوانب القصور والاختلاف فى غيرها ، بقـدر ما تنظر الى الجوانب المشرقة والتى توحد الكنائس بعضها مع بعض ـ وهـذا لا يتم الا اذا اقتربت الكنائس بعضها من بعض فى روح المودة المخلصة والتعاون المثمر .

وقد فكر احد الكتاب مرة فى الكنيسة المثالية التى يرجو أن تتحقق فى المستقبل فوجد فى كل كنيسة امتيازا وجمالا فتمنى أن تكون فى كنيسة المستقبل العناصر التالية من كل كنيسة ومذهب ... تمنى أن يكون فيها تنظيم الكنيسة الأسقفية ووقار عبادتها وتعلق الكنيسة الانجيلية المشيخية بالكتاب المقـدس ونقاوة تعاليمها ... وديمقراطيـة الكنيسة الاستقلالية واستقلالها ... وبساطة الكنيسة المعمدانية وحريتها ... وحرارة ايمان الكنيسة اللوثرية وتوازنها ... وروح الهدوء والتأمل الموجودة فى عبـادة كنيسة الاخوة ومحبة السلام فيها ... وبطولة الكنيسة الأرمنية وشهادتها وغيرتها وحيويتها ... وجهاد كنيسة التلاميذ ونشاط كرازتها ... وروح التبشير الموجود فى الكنائس الرسولية وسرعة انتشارها ... وسخاء كنائس الله وحيويتها ... وثبات الكنيسة الأرثوذكسية ومحافظتها على ايمـانها وتقـاليدها ... ونظـام الكنيسة الكاثوليكية وروح الطاعة بين اعضائها .

ان الكنائس المسيحية بمذاهبها المتنـوعة باقة جميـلة من الورود والأزهار ، متعددة الاشكال والألوان ، لكنها باتحادها معـا تملأ العالم من عطر المسيح ، وتزين الحياة بجمال المسيح ...

ملحق عن

نشأة الكنيسة المصرية

أولا :

القديس مرقس الانجيلي والكنيسة التي أسسها بمصر

(*) نشر للمؤلف فى ملحق لمجلة الهدى فى سلسلة « الاغصان » عدد سبتمبر ١٩٧٩ .

تقـــديم :

اذا كان الفكر المسيحى فى العالم يهتم بدراسة حياة القديس مرقس الانجيلى باعتباره كاتب انجيل مرقس ، ثانى الأناجيـل ، وأقدمها فى تاريخ كتابته ، فبالأولى جدا يجب علينا نحن المصريين المسيحيين ان يزداد اعتزازنا واهتمامنا بدراسة حياة هذا القديس، لأنه هو المعروف بلقب : « كاروز الديار المصرية » ، والشائع أنه من أوائل من حملوا رسالة الانجيل الى بلادنا ٠

والقصص والروايات التى تروى عن حيـــاة هذا القـــديس العظيم كثيرة ومتباينة حسب مصادرها المختلفة ، فمنها ما ورد فى العهد الجديد ، وهذه أصدق الروايات بلا منازع ؛ ومنها ما ورد فى أقوال الآباء المبكرين فى تاريخ الـكنيسة ، ومنها ما هو متـأخر نسبيا ٠٠٠ وهــــذه ينبغى تمحيصها ومقـــارنتها بعضها ببعض وبأحداث التاريخ السابق تحقيقها بواسطة المؤرخين الموثوق بهم ، وذلك التزاما بالأمانة العـــلمية ، والدراسة الجادة ، وهـــذا هو التكريم الحقيقى للآباء القديسين ، أن نتـوخى الأمانة والدقة فى دراسة تاريخهم المقدس ٠

فمن هو القديس مرقس ؟ وماذا يذكر الكتاب المقدس عنه ؟ وماذا تذكر التقـاليد عنه ؟ وما هى ملامح الكنيسة التى أسسها فى بلادنا المصرية ؟ وكيف نعبر عن اعتزازنا الحقيقى وتقـــديرنا الصادق لشخصية هذا الكاروز العظيم ؟

كل هذه أســـئلة نرجو بنعمة الله ان نجيب عليها بايجـــاز فى هذا المقال ٠

ـ ١ ـ

من هو القديس مرقس ؟

اسمه الأصلى « يوحنا » وهو اسم يهودى ، معناه « الله يتحنن » .. أما « مرقس » فهو لقبه أو اسمه الرومانى ، لذلك فان سفر اعمال الرسل يطلق عليه اسم « يوحنا الملقب مرقس » (أعمال ١٢ : ١٢ ، ٢٥) وفى بعض الأحيان يسمى باسم « يوحنا » فقط (اعمال ١٣ : ٥ ، ١٣) ولا نعرف لماذا اتخذ لقب « مرقس » ثم اشتهر به وحده دون اسم « يوحنا » فيما بعد ـ لكن المرجح أن ذلك حدث بعد أن كان يخدم مع برنابا فى المدينة الامية العظيمة انطاكية ، وربما تمسك بهذا الاسم تأكيدا للجنسية الرومانية التى كان حاصلا عليها بالميلاد وكانت تعطيه امتيازات متعددة فى الدولة الرومانية ، شأنه شأن شاول الطرسوسى الذى اتخذ اسم بولس .

ونحن لا نجد أية اشارة الى يوحنا مرقس فى الأناجيل الأربعة ، وأول اشارة اليه جاءت فى سفر الأعمال ، الأمر الذى حدا بالبعض بأن يذكر أن مرقس رأى السيد المسيح شخصيا ـ فقد جاء فى أقوال بابياس Papias وهو من مؤرخى المسيحية فى القرن الثانى الميلادى (سنة ١٢٥ م) ومن أشهر من اهتموا بجمع التقاليد القديمة عن الآباء ، انه قال وهو يتحدث عن انجيل مرقس ، القول التالى :

« كان مرقس مفسرا أو مترجما لفكر بطرس الرسول ، وقد كتب بدقة كل ما سمعه من بطرس عما قاله المسيح أو فعله ، ولكن بدون ترتيب ، ذلك لأن مرقس لم يكن ممن سمعوا الرب

شخصيا أو ممن اتبعوه شخصيا ، لكنه اتبع روايات بطرس عن المسيح ، واعتمد على الذاكرة فيما رواه ، لأنه جاء الى المسيحية » فى وقت متأخر نسبيا » ٠

(يوسابيوس HE جزء ٣ صفحة ٣٩ ـ كذلك دائرة المعارف الكتابية الدولية(*) ISBE تحت Gospel of Mark كذلك شرح وليم باركلى عن رسالة بطـــرس الأولى (الترجمـــة العـــربية) ص ٤٢٠ ، ٤٢١) ٠

على أن كثيرين من آباء الكنيسة لم يتعرضوا لهـــذا الأمر سواء بالنفى أو الاثبات ، وكل ما اتفقوا عليه هو أن الانجيل الذى كتبه مرقس مستمد من المعلومات التى استقاها مرقس من بطرس الرسول الذى كان مرقس ملازما له بعض الوقت ٠ وفى هذا شـــبه تأكيد أن مرقس لم يكن من أتباع السيد المسيح أثناء حياته عـــلى الأرض ـ وممن ذكروا ذلك ايرانيوس (آسيا الصغرى عام ١٧٥م) وأكليمندس الاســـكندرى (عام ٢٠٠ م) وترتليانوس (شمال أفريقيا عام ٢٠٧ م) وكثيرون غيرهم ٠

ومن المعلوم أن مرقس لم يكن واحدا من الاثنى عشر تلميذا ، لكن البعض يظن أنه كان واحدا من السبعين تلميذا الذين أرسلهم المسيح ٠ وقد أشـــير الى ذلك فى كتـــاب « الايمـــان القويم » لأوريجانوس ، وكتاب ابيفانوس أسقف قبرص فى القرن الرابع ٠ والبعض يرجح أن العلية التى أكل فيها السيد المسيح الفصح مع تلاميذه كانت فى بيت مرقس ، وأنها نفس العلية التى اجتمع فيها التلاميذ بعد القيامة ، وفيها حل الروح القدس على التلاميذ ٠ لكن

(*) International Standered Bible Encyclopedia.

هذه الافتراضات تفتقر الى الدليل فلا توجد فى كتابات الآباء الأوائل اشارات الى ذلك على الاطلاق · ولو كان هذا أمرا محققا لذكره على الأقل اكليمندس الاسكندرى (عام ٢٠٠ م) خاصة وعلاقة القديس مرقس بكنيسة الاسكندرية شائعة فى التقاليد الكنسية ·

وأول اشارة فى العهد الجديد الى يوحنا مرقس نجدها فى سفر أعمال الرسل الأصحاح الثانى عشر ، فقد خرج بطرس من السجن وجاء « الى بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس حيث كان كثيرون مجتمعين وهم يصلون » (أع ١٢ : ١٢) والتاريخ المرجح لهذه الحادثة هو عام ٤٤ م ومن هذا نستطيع أن نتبين أن مرقس وأمه اعتنقا المسيحية قبل ذلك ، وان هذه الأسرة كان لها شأن بين جماعة المسيحيين ، فقد كان المسيحيون يجتمعون فى بيت الأسرة للصلاة · ويبدو من وصف المنزل فى سفر الأعمال ، ومن وجود جارية يونانية فى المنزل ، أن الأسرة كانت على شىء من الثراء · ولا يذكر الكتاب شيئا عن الأب ويبدو أنه كان متوفيا من وقت هذه الأحداث ·

يقول بعض المؤرخين أن مرقس ولد فى مدينة القيروان فى شمال أفريقيا فى أسرة يهودية غنية · وأن بعض القبائل الهمجية أغارت على هذه المدينة لتنهب أموال الناس فرحل أبواه الى أورشليم · (قصة الكنيسة القبطية لايريس المصرى جزء ١ صفحة ٢٠) بينما يقول آخرون أن هذه الأسرة كانت تسكن قبرص لأن مرقس كان ابن أخت برنابا (كولوسى ٤ : ١٠) وكان برنابا يهوديا قبرصى الجنس (أعمال ٤ : ٣٦) وهذا يفسر اهتمامه بالسفر الى قبرص عدة مرات ، ومن المرجح أن تكون اخته مريم كانت مقيمة فى قبرص أيضا (ISBE تحت عنوان Mark) ·

وعلى كل حال فقد كان شأن العائلات اليهودية المتعبدة أنها بعد أن تحصل على ثروة مادية من العمل والتجارة فى مختلف البلاد أن تعود الى أورشليم باعتبارها مركزا للأمة اليهودية والايمان اليهودى ·

ـ ٢ ـ

حياة القديس مرقس وخدمته كما يرويها العهد الجديد

لا نستطيع أن نعرف باليقين الكيفية التى صار بها مرقس مسيحيا ، وهل كان ذلك منذ بدء تأسيس الكنيسة فى أورشليم بعد القيامة مباشرة ، أم فى فترة تلى ذلك ، على أنه من المؤكد أن أسرة مرقس آمنت بالانجيل قبل عام ٤٤ م كما سبق الذكر · ومن اشارة بطرس الرسول فى ختام رسالته الأولى عن مرقس أنه ابن له (١ بط ٥ : ١٣) نفهم أن بطرس الرسول كان له دور هام فى ايمان مرقس بالمسيح ــ ومما لا شك فيه أنه كانت لمرقس الفرصة أن يلتقى بالرسل فى مختلف المناسبات ، بدليل أنه وقع عليه الاختيار أن يرافق برنابا وشاول فى خدمتهما فى انطاكية (أع ١٢ : ٢٥) وفى قبرص حيث يقول كاتب سفر الأعمال « وكان معهما يوحنا خادما لهما » (أعمال ١٣ : ٥) · ويختلف الشراح فى نوع الخدمة التى كان مرقس يقوم بها ، فقد قال البعض انها كانت خدمة المعاونة فى الاداريات ، وقال آخرون أنه كان يشترك مع بولس وبرنابا فى خدمة الوعظ والتعليم ، وقال آخرون أنه كان يسند اليه تعليم حديثى الايمان فى العقيدة المسيحية ·

ويذكر الكتاب أن يوحنـــا مرقس افترق عن برنابا وشاول ورجع الى اورشليم (أع ١٣ : ١٣) وقد تساءل كثيرون عن سر هذا الافتـــراق ، ولم ينسبه أحـد لأسـباب شخصية كالتردد أو الشعور بالغـربة ، أو رعاية الام أو عدم الرغبة فى المخاطرة ؛ لكن المرجح أن يوحنا مرقس لم يكن مستعدا باعتباره يهوديا متمسكا ، أن يرى الانجيل المسيحى يقدم الى الأمم على أساس الايمان فقط دون مراعاة الطقوس اليهودية ، ولم يكن هذا موقفه وحده بل كان موقف عدد كبير من المسيحيين القادمين من اليهودية ـ وربما يفسر هــذا الأمر حذف اللقب الرومانى « مرقس » من اسمه عند الاشارة الى مفارقته لبرنابا وشاول ، كما يفسر هذا أيضـا معـارضة بولس الشديدة فى قبوله عودته للخدمة معهما عندما اقترح برنابا ذلك فى الرحلة الثانية بعد سنتين • ذلك لأن بولس كان متشددا جدا فى ضرورة فتح باب قبـول الأمم للانجيـــل دون الزامهم بالطقوس اليهودية بل بالايمان فقط • ولوصف هذا الخلاف نذكر ما جاء عنه فى سفر الأعمال « فأشار برنابا أن يأخذا معهما أيضا يوحنا الذى يدعى مرقس ، أما بولس فـــكان يستحسن أن الذى فارقهمـا من بمفيلية ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما • فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر • وبرنابا أخذ مرقس وسافر فى البحر الى قبرص وأما بولس فاختار سيلا » (أعمال ١٥ : ٣٧ ـ ٤٠) ولعلنا نلاحظ هنا أن لوقا كاتب سفر الأعمال يذكر اسم « مرقس » الرومانى فى هذا الموقف دليلا على أن مرقس قد اقتنع بحقيقة دخول الأمم مباشرة الى المسيحية وكان مستعدا أن يرافق بولس •

وتمضى فترة احدى عشرة سنة لا نسمع فيها شيئا عن مرقس الى ان نســـمع أنه كان مع بولس فى روما (كولوسى ٤ : ١٠ ؛ فليمون ٢٤) ومن هذا نعلم أن العلاقات عادت طبيعية بين بولس ومرقس ، ونسـتطيع أن نلمس اعتزاز الرسول بولس بشخصـية

مرقس وخدمته فيما كتب عنه ، ونستطيع أن نرى رحلة محتملة سيقوم بها مرقس الى كولوسى فى آسيا الصغرى فى قول بولس « أن أتى اليكم فاقبلوه » (كولوسى ٤ : ١٠) وفى ختام رسالة بولس الثانية الى تيموثاوس نقرأ أن بولس يطلب من تيموثاوس أن يحضر اليه مرقس ، ويعبر بولس مرة ثانية عن تقديره لخدمة مرقس بقوله : « لأنه نافع لى للخدمة » (٢ تى ٤ : ١١) .

ـ ٣ ـ

كرازة القديس مرقس فى مصر

كانت الاسكندرية من أشهر المدن المصرية خاصة لوجودها على البحر الأبيض المتوسط حيث كانت ملتقى الحضارات والثقافات المتنوعة . وقد اشتهرت الكنيسة المسيحية فى مصر بأنها كنيسة الاسكندرية لتمييزها عن الكنائس المسيحية الأخرى فى سائر أقاليم الشرق ، ولأنه يحتمل أن تكون رسالة الانجيل وصلت أولا الى هذه المدينة باعتبارها مدخلا الى مصر ، ونحن نتساءل : من أول من كرز بالانجيل فى مصر ؟

يحدثنا سفر أعمال الرسل أنه كان من بين اليهود الأتقياء الذين حضروا حلول الروح القدس يوم الخمسين أناس من كل أمة تحت السماء ، وكان من بين هؤلاء بالتحديد أناس من مصر (أعمال ٢ : ٥ ـ ١١) ومن المحتمل جدا أن بعض الذين قبلوا المسيحية من بين الثلاثة آلاف نفس الذين اعتمدوا فى ذلك اليوم كان هناك أناس من مصر ، ومن الطبيعى أن هذه الباكورة التى

ابتدأ بها الله الكنيسة المسيحية انتشرت فى البلدان المختلفة التى جاءت منها ، ونادت بالرسالة المسيحية وغالبا تكون هـذه بداية الكنيسة المسيحية فى مصر ٠

كذلك يحدثنا سفر أعمـــال الرسل انه فى مســـتهل تاريخ الكنيسة حدث اضطهاد عظيم على الكنيسة فى أورشليم ، وتشتت كثيرون من المسيحيين فجالوا مبشرين بالكلمة ، ولعل بعضهم لجأ الى مصر لأنها كانت من أقرب البلاد الى أورشليم ، وقد لجـأ اليها من قبل ابراهيم كذلك لجـأ اليها يوسف ومريم العذراء المبـاركة والطفل يسوع ٠ لذلك فمن المحتمل جـــدا أن تكون المسيحية قد وصلت الى مصر فى تاريخ مبكر ، سابق لمجئ مرقس اليها ٠

ونحن لا نستطيع أن نجد فى كتابات الآباء المبكرين شـيئا عن مجئ القديس مرقس الى مصر ، ولـكن بعض المراجع المتـأخرة نسبيا ذكرت ذلك ٠ فقـــد جاء فى مخطوط عربى لناسـخه القمص شـنوده البرموسى ص ١١ ــ ١٥ ؛ وجاء فى السنكسار جـــزء ١ صفحة ١٢٧ ، وتاريخ البطـاركة لساويرس ابن المقفـــع أسقف الأشمونين (عام ٩٥٠ م) أن مرقس بعد أن اشترك مع برنابا فترة من الزمن ألهمه الروح القدس أن يحمـــل البشارة الى المدن الخمس فى شمال افريقيا ومنها أتى الى مصر ٠

ويروى السنكسار روايات شيقة عن حضور القديس مرقس الى مصر ، ونزوله مدينة الاسكندرية ، وسيره فى شوارعها متأملا جمالها حزينـــا على شرها ، وكيف أنه نسى الجوع والتعب حتى المساء عندما انقطع سير حذائه فوقف ليصلحه عند اسكاف يدعى حنـانيا (اينانوس) وكيف أنه أجرى معه معجزة شـــفاء وبشره بالمســـيح (قصـــة الكنيسة القبطية لايريس المصرى جـــزء ١

ص ٢٤ ــ ٢٦) الا ان الأدلة التاريخية لمثل هذه الروايات ليست متوفرة علميا ٠

كما يستند البعض فى حجتهم على حضور القـديس مرقس الى مصر الى قول بطرس الرسول فى ختام رسالته الأولى : « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة معكم ومرقس ابنى » (١ بط ٥ : ١٣) ويقولون أن المقصود ببابل هو حصن بابليون فى مصر القديمة الذى أقامه اللاجئون من مدينـــة بابل الأشورية وأطلقوا عليـــه اسم مدينتهم ٠ الا ان المؤرخين الموثوق بهم استبعدوا هـذا الافتراض لأنه لا توجد دلائل مطلقا على زيارة بطرس الرسول لمصر ، كما أن أغلب الشراح لهم رأى آخر فى تفسـير كلمة « بابل » التى كانت تستخدم فى العهد الجديد (فى سفر الرؤيا مثلا) رمزا الى المدينـة الشريرة ويرجحون أن بطرس يشير الى مدينـــة روما (تفسـير باركلى : رسالة بطرس الرسول الأولى ، ــ ISBE) ٠

وحتى من يذكرون أن القـــديس مرقس زار مصر ، يؤكدون أنه تركها بعد فترة قصيرة بناء على طلب الأخوة خوفا على حياته بسبب نجاح خدمته ، ويذكرون أنه قام برسامة انيانوس أسقفا على مصر ٠

ومن بين الأدلة التى يوردها البعض على حضـور القديس مرقس الى مصر ، وجود كنيسة باسمه فى الاسكندرية يقـــال أن رأسه مدفون فيها ٠ فقد ذكرت بعض الروايات أن مرقس عاد الى مصر ، وأنه استشهد فيها صبيحة يوم عيـد القيـامة عام ٦٨ م اذ قبضت عليه الجماهير وهى خارجة من احتفـالها بعيـــد الاله الوثنى سيرابيس ، وأودعوه السجن وفى اليوم التالى ربطوا حبلا حول عنقه وأخذوا يجرونه على الأرض فلم يلبث ان انفصل رأسه عن جسده ، ولـــا أرادوا أن يحرقوا جسـده هبت عاصفة شديدة

فتفرقوا وبعد العاصفة أخذ المسيحيون جسده ورأسه ودفنوه فى كنيسة القديس مرقس الاسكندرية · (قصة الكنيسة القبطية لايريس المصرى جزء ١ ص ٢٨) على أن هذه الرواية ليست محققة تاريخيا فضلا عن عدم احتمال صحة انفصال الرأس عن الجسد بمجرد الجر على الأرض · لكن التقاليد تروى أنه بعد مجمع خلقدونية فى القرن الخامس الميلادى كان شائعا أن جسد القديس مرقس مدفون فى الاسكندرية فنقل أنصار الامبراطور البيزنطى جسده الى كنيسة تابعة للخلقدونيين (الملكيين) الذين كانوا معارضين للكنيسة القبطية ، ومن هناك سرق بعض تجار البندقية الجسد ودفنوه فى كاتدرائية القديس مرقس بالبندقية (فينيسيا) وقد ظل الجسد هناك الى ٢٤ يونيو ١٩٦٨ عندما نقلت الرفات الى الأنبا رويس بالقاهرة بعد الاتفاق بين البابا كيرلس السادس بابا الاسكندرية ، والبابا بولس السادس بابا روما ·

وسواء كانت الروايات التى تروى عن كرازة القديس مرقس بمصر صحيحة كلها أو متفاوتة فى درجة صحتها ، الا أنه من المؤكد ان الكنيسة المسيحية فى مصر خاصة فى القرون الأولى أسهمت بشكل ملحوظ فى الفكر المسيحى فى العالم كله ، وكان لها آباء أفذاذ من اللاهوتيين والمفكرين ، ولذلك فهى تستحق كل تقدير واعتبار ·

ان الكنيسة المسيحية فى مصر ، وفى كل بلاد العالم تنتمى الى السيد المسيح الذى عمل بروحه فى كل من قاموا بالكرازة بالانجيل ، ونحن من دراستنا للعهد الجديد نلاحظ أن الرسل الأطهار كانوا يرفضون رفضا قاطعا ان ينسب اليهم الفضل فى تأسيس الكنائس وكانوا يتوجهون باللوم الى المسيحيون فى مختلف البلدان عندما كانوا يسمعون انهم يعلنون انتماءهم الى هذا الرسول أو ذاك · والسبب فى ذلك هو ان مثل هذه الدعاوى

تضعف روح الوحـــدة فى الكنيسة الجامعة ، وتلقى ظـلالا على انتمائها الحقيقى للسيد المسـيح مصـــدر وجودها وكيانها ، وقد كتب بولس الرسول الى كنيسة كورنثوس قائلا : « لأنى أخبرت عنكم يا أخوتى من أهل خلوى أن بينكم خصومات ، فأنا أعنى هذا أن كل واحد منكم يقول أنا لبولس وأنا لأبلوس وأنا لصـفا وأنا للمسيح · هل أنقسم المسيح ؟ ألعل بولس صلب من أجلكم أم باسم بولس اعتمدتم » (١ كو ١ : ١١ ـ ١٣) ·

على أن انتماء الكنيسة لشخص المسيح لا ينبغى أن يجعلها تهمل سيرة آباء الكنيسة الأوائل الذين حفظوا ايمـــان الكنيسة وشهادتها ، بل على الكنيسة أن تتمثل بهم كما هم أيضا بالمسيح (١ كو ١١ : ١) · فكلما كانت قيادة الكنيسة قريبة من المسـيح فكرا وعملا ، كانت مثلا يحتذى بها ، وأدعى الى طاعتها ·

ومن هـــذا المنطلق تكون القيمة الحقيقيـــة لآباء الكنيسة سيرتهم المقدسة ·

ـ ٤ ـ
ملامح الكنيسة المصرية فى القرن الأول الميـلادى

هل الكنيسة المسيحية فى مصر اليوم تحمل نفس الملامح فى نظام عبادتها وادارتها كما كانت فى القرن الأول الميلادى ؟ هنـــا نسرع فنقول اننا نقع فى خطأ كبير اذا تصورنا أن نظام الكنيسة الحالى فى أى كنيسة مسيحية يشابه ويطابق تمـاما الكنيسة فى عصر بولس وبطرس ومرقس · ولو قلنا ذلك نكون قد تجـــاهلنا عشرين قرنا من الزمان هو عمر الكنيسة المتطورة فى عالمنا · فمعلوم

أن الكنيسة المسيحية الأولى كانت غاية فى البساطة فى مبـــانيها ونظامها وعبادتها ٠

كان المسيحيون يجتمعـــون فى حجـــرة متسعة عادية أو فى سراديب تحت الأرض أو فى البيوت ٠

وكان نظام العبـــادة يتكون من اجتمـاعات دورية فى أول الأسبوع (أعمال ٢٠ : ٧) لم تكن فيها طقوس بل صلوات وترانيم من المزامير وقراءات من العهد القديم ومن رسائل الرسل ووعظ أو تعليم ، وممارسة فريضة العشاء الربانى ، ومعمودية المتجـددين المنضـمين الى الكنيسة وأطفـالهم (رو ١٦ : ٣ ، ٥ ، أع ٢ : ٤١ ، ٤٢ ؛ ١ كو ١٤ : ٢٦) ٠

لم يكن أى رسول أو تلميذ يلقب بلقب كاهن ، ويرتدى زيـا خاصا أثناء العبادة ، وكان الرسل يكتشفون بعض الموهوبين فى الكنيسة فيرسمونهم شيوخا مدبرين أو معلمين حسب مواهبهم ، هؤلاء هم القسوس أو الأساقفة ، وهى وظيفة واحدة وليست رتبـة متدرجة (أعمال ٢٠ : ١٧ ، ٢٨ ؛ ١ بط ٥ : ١) وكانت الكنيسة تختار شمامسة لخدمة الموائد وتوزيع الصدقات (أعمال ٦ : ١ـ٦)٠

لقد كان الرسل متـأثرين بفكرة السيد المسيح عن روحانية العبادة ، وابتعادها عن المظـــاهر الخـارجية ، وتركيز الاهتمام بالدوافـع الداخليـــة (يوحنـــا ٤ : ٢٤ ؟ يوحنـــا ٦ : ٦٣ ؟ كولوسى ٢ : ١٦ ، متى ٦ : ١ ــ ١٨) ٠

كانت الكنائس تكاد تكون مســتقلة احداها عن الأخـرى تجمعها وحدة الايمان وشركة المحبة فلم تكن فى الكنيسة المسيحية الأولى رياسات متدرجة ، ودرجات كهنوتية من الأدنى الى الأعلى٠

وعندما كانت تعترض المسيحية بدعة أو يهددها فكر هرطوقى كان أساقفة الكنيسة والمفكرون فيها يجتمعون معـــا لمناقشتها وهـكذا ظهرت قوانين الايمان ٠

فى عهد الرسل وبعدهم بزمن طويل لم تكن هنـــاك كنائس كاثوليكيـــة أو أرثوذكسية أو انجيلية ؛ والكنائس التى أسهم بطرس وبولس ومرقس وغيرهم فى انشائها لم تكن تسمى بهـذا الاسم أو ذاك ٠ والواقع أن تعبير الكنيسة « الكاثوليكية » ومعناه الكنيسة الجامعـة لم يظهر الا فى وقت متأخر عنـــدما شعر قادة الكنيسة أن هنـــاك أفكارا غريبة تهـــدد المسيحية كالغنوسية ، فابتدأوا يهتمون بوحدة الفكر والقيادة فى الكنيسة باعتبارها وحدة شاملة أو كنيسة جامعة (كاثوليكية) ٠ وقد اشـــتهرت القرون الأولى فى تاريخ المسيحية بكثرة الجدل فى العقيدة ، وكانت مجامع الكنيسة تتفق على العقيدة السليمة المستقيمة وبذلك ظهـــر الى الوجود التعبير « أرثوذكسى » ومعناه صـــاحب الفـــكر السليم المستقيم ٠ الا أن الكنيسة فيما بعـــد عانت كثيرا من الرغبة فى السـيادة من جانب بعض الأساقفة ، هـــذا فضلا عن الخلافات العقـائدية فتغيرت ملامح الكنيسة عمـــا كانت عليـه فى عصرها الرسـولى الأول ٠ ومع ذلك كان كل جانب فى الـكنيسة يعتبر أنه هو الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) وغيره ليس ضـــمن حظيرة الكنيسة ؛ وكان كل جانب من الكنيسة يعتبر أنه وحـده على حق وصاحب العقيدة السليمة (ارثوذكسى) وغيره بعيـد عن الحق — وساعد على ذلك النزعات الاقليمية والعوامل السياسية ٠ وقد كان هذا ضمن أسباب انفصال الكنائس الشرقية عن الغربية ٠

ومن يدرس تاريخ الـكنيسة فى مصر ، يلاحظ أنه فى مجمـع خلقدونية عام ٤٥١ م اختلف الأساقفة حول طبيعة السيد المسيح فنادى ديوسقورس أسقف الاسكندرية بمذهب الطبيعة الواحدة ، وانضم اليـه نفر قليـــل من الأساقفة ، وعارضه باقى الأساقفة

وعزلوه فنشــأت الكنائس غير الخلقدونية التى منهــا الكنيسة القبطيــة الأرثوذكسية والأرمنية الأرثوذكسية واليعــاقبة ــ أما الباقون فأقروا قرارات مجمع خلقدونية وأصبح لكرسى الاسكندرية بطريكان حتى هذا اليــوم أحدهما لغير الخلقدونيين ، والثــانى للخلقدونيين المعروفين باســم الروم الأرثوذكس • وجاءت ظروف متنوعة باعدت بين كل الكنائس الشرقية والكنيسة الغربية التى احتفظت باسم الكاثوليكية أى الجامعة •

ثم جاءت حركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس‌عشر نتيجة لنهضات متكررة فى داخل الكنيسة القائمة حاولت أن تعيــد الى الكنيسة بساطة الايمــان وروحانية العبــادة والتمسك بالحق الكتابى الانجيلى دون التقاليد ، لتكون الكنيسة أقرب ما يكون الى عصر الرســل ، ولكن ازاء جهــود الكنيسة القائمة فى ذلك الوقت ، اضطرت حركة الاصلاح أن تنفصل عن الكنيسة لينشأ المذهب الانجيلى أو البروتستانتى (المحتج على ظروف وحيــاة الكنيسة فى ذلك الوقت) •

وفى العصر الحديث نهضت مختلف الكنائس ، ونشأت الحركة المسكونية التى تنــادى بوحـدة الكنيسة فى تنوع ، ليس وحـدة الرياسة ، بل وحدة الروح • ولو أن الكنيسة استجابت لعمــل الروح القدس ، وعادت الى بساطة الايمان ، وروحانية العبادة ، وكلمة الله الصادقة ، فانهــا تكون فعــلا كنيسة مستقيمة الرأى (أرثوذكسية) ، ويعتبر المؤمنون الحقيقيون أنفسهم جسدا واحدا فى كنيسة جامعــة (كاثوليكية) ، وبذلك تكون الكنيسة حقــا « انجيلية » ــ وأبواب الجحيم لن تقوى عليها • آمين •

ثانيا :

نشأة الكنيسة الانجيلية بمصر *

(*) نشر للمؤلف فى كتاب « ايمانى الانجيلى » سنة ١٩٧٧ ·

نشأ المذهب الانجيلى (وهو معروف فى الخارج باسم الكنيسة المشيخية) نتيجة لحركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر، فقد كان من قادة المصلحين الذين ساروا على منهج لوثر · لاهوتى فرنسى اسمه « جون كلفن » اشـــتهر بعمق دراساته اللاهوتية ، ووضع مؤلفا ضخما أسماه « النظم المشيخية » فيه شرح العقيدة الكتابية شرحا مفصلا ، وقد عاش جون كلفن فى جنيف بسويسرا وأنشأ فيها مدارس لتعليم المسيحيين العقيدة المسيحية ، لأنه أعلن أن المسيحية والتعليم مرتبطان ارتباطا وثيقا ، ومن يرد مسيحية قوية ، فيجب عليه أن يفتح باب الدراسة واسعا للمسيحيين ·

وقد وضع جون كلفن النظام المشيخى فى الكنيسة ، والذى بمقتضاه يختار الشعب من بينهم شمامسة لخـدمة أموز الكنيسة الزمانية وجمع التقدمات والعناية بخدمة الفقراء ، وشيوخا مدبرين وهم الذين يدبرون أمور الكنيســـة الادارية ويزورون الأعضـــاء ويفتقدونهم ، وشـــيخا معلما هو القسيس الذى يعظ بالكلمـة ، ويرأس مجلس الكنيسة ·

وعقيدة الكنيسة المشيخية مبنية على أساس الكتاب المقدس وهى التى نقدمها اليك فى هذا الكتاب بايجاز ـ أما نظامها الادارى فهو مبنى على ما نفهمه من نظام كنيسة العهد الجديد ، مع ما يلزم من ترتيبات ادارية ضرورية نتيجة لاتساع الكنيسة فى عدة أقاليم·

وقد انتشر المذهب المشيخى فى أوربا خاصة فى سويسرا ثم انتقل الى اسكتلندا · وعندما هاجر كثيرون من البروتستانت من أوربا الى أمريكا نتيجة للاضطهادات الدينية فى عهد بعض الملوك ، انتشر المذهب المشيخى فى أمريكا ·

أما تاريخ الكنيسة المشيخية فى بلادنا المصرية فيرجـع الى عام ١٨٥٤ عندما جاء بعض المرسلين من هذا المذهب ، ووجـــدوا

الكنيسة المسيحية فى مصر فى حالة من الضعف والركود نتيجـــة لضعف التعليم وعدم قراءة الكتاب المقدس بلغة الشعب المعـــروفة وغير ذلك من الأسباب ، فابتدأوا يعلمون الناس بكلام الانجيل ، وكان قد سبقهم بعض المرسلين من أوربا حاولوا جاهدين القيـــام بحركة اصلاحية داخل الكنيسة التقليدية ، ولكنهم فشلوا بسبب معارضة البطاركة والأساقفة لهم ، لذلك اضطر هؤلاء المرسلون أن يقوموا بجهدهم الكرازى خارج نطاق هذه الكنيسة ·

وفى سنة ١٨٦٠ اشترك سبع شـخصيات على مائدة الرب فى الاسكندرية كان منهم سيدة ، وكان هؤلاء السبعة هم النـــواة الأولى للكنيسة الانجيلية فى مصر ·

وفى ١٥ فبراير سنة ١٨٦٣ رسم أربعـــة شـــيوخ وثلاثة شمامسة لأول كنيسة انجيلية فى مصر وهى كنيسة الأزبكية ، وفى نفس السنة أنشـئت كلية اللاهوت الانجيلية لاعـــداد القســـوس اللازمين لخدمة الكنيسة ·

ثم توالى تخرج القسوس من هـــذه الكلية وانتشـارهم فى مختلف البلدان ، وهكذا تأسست الكنائس الانجيلية فى أنحـــاء البلاد ـ وقد دعيت الكنيسة باسم «الانجيلية» بدلا من «المشيخية» لأن الناس كانوا يلاحظون أن هذه الكنيسة تهتم بتعليم النـــاس عن الانجيل وتجعله أساسا لعقيدتها ·

ونظام الكنيسة ديمقراطى ، فالشعب يختار الراعى والشيوخ ومنهم يتكون مجلس الكنيسة فى بلد معين ، ويشرف على مجالس الكنائس المحلية فى اقليم معين مجمع يتكون من جميع القسوس فى هذا الاقليم مضافا اليهم شيخ واحـد منتـــدب عن كل كنيسة ، ويجتمع مجلس الكنيسة دوريا ، ويجتمع المجمع ثلاث مرات فى السنة ، ويجتمع جميع القسوس وشـيخ عن كل كنيسة فى مصر كلها مرة واحدة فى السنة على هيئة « سنودس » أى مجمع مقدس أعلى ، وهو يشرف على كل نواحى الخدمة الروحية فى مصر ·

ويختار كل مجمع وكذلك يختار السنودس كل عام رئيسا له من بين أعضائه يقود الجلسة أو الجلسات التى تعقد طيلة هذا العام • وهكذا تترك الكنيسة قيادتها للروح القدس وللجماعة المستنيرة بالروح القدس •

وسنودس النيل الانجيلى هو المجمع الأعلى للكنيسة الانجيلية الشيخية فى مصر وهو يتكون من ثمانية مجامع : هى مجمع الدلتا ، مجمع القاهرة ، مجمع الأقاليم الوسطى ، مجمع المنيا ، مجمع ملوى ، مجمع أسيوط ، مجمع سوهاج ، مجمع الأقاليم العليا •

وكانت هناك علاقة ودية بين الكنيسة الانجيلية • والكنيسة المشيخية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، اذ كانت ترسل مندوبين لحضور المحفل العام لهذه الكنيسة ، الا أنه ابتداء من سنة ١٩٥٨ خرج السنودس من رابطة المحفل العام للكنيسة المشيخية المتحدة المذكورة ، وصار محفلا عاما قائما بذاته • الا أن الكنيسة الانجيلية كانت مستقلة استقلالا ماليا عن الكنيسة فى أمريكا منذ عام ١٩٢٦

ويضيق المجال هنا عن ذكر الرسالة العظيمة التى قامت وتقوم بها الكنيسة الانجيلية فى مصر • فى خدمة التعليم والكرازة ونشر الانجيل ، فان تأثيرها تعداها الى الكنائس الاخرى وأصبحت رائدة فى خدمة المسيح • كما انها أرسلت مرسلين منها الى السودان ، وفى وقت من الأوقات كان مجمع السودان جزءا من السنودس ثم استقل أخيرا • وللكنيسة قسوس يخدمون فى كنائس بلدان كثيرة فى الشرق العربى مثل سوريا ولبنان والعراق والبحرين ، والكويت ، ومنهم من يخدم فى أوربا وأمريكا ــ كما تقوم الكنيسة بخدمة اجتماعية واسعة عن طريق الهيئة القبطية الانجيلية للخدمات الاجتماعية التى تهدف الى تنمية المجتمع •

وكذلك عن طريق المدارس الانجيلية المنتشرة فى عدد كبير من بلاد الجمهورية •

أحدثت حركة الاصلاح هزة قوية لا فى العقائد الدينية فحسب ، بل فى مفاهيم الحرية وحق الانسان فى التعبير عن رأيه .

وهذا الكتاب يقدم لك دراسة مبسطة لتتعرف على جذور هذه الحركة وآثارها .

كتاب ينبغى أن يقرأه كل مثقف ليعرف تاريخ العقيدة الانجيلية ونشأتها .